Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

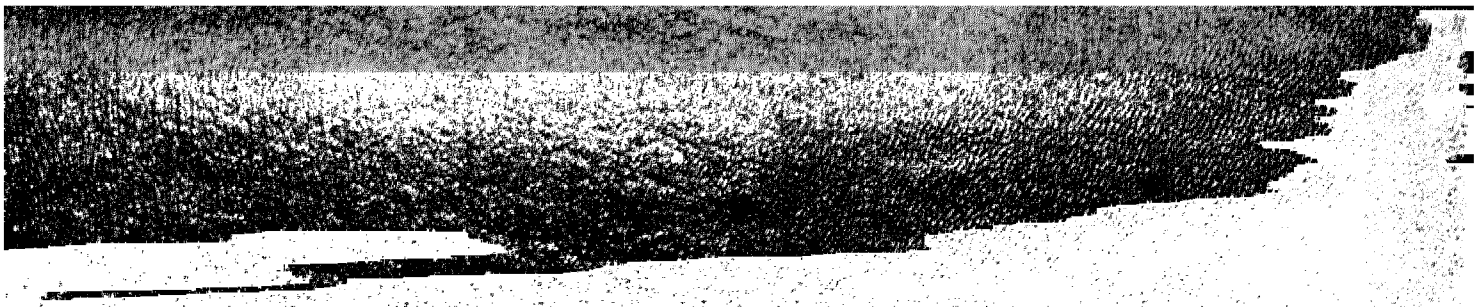

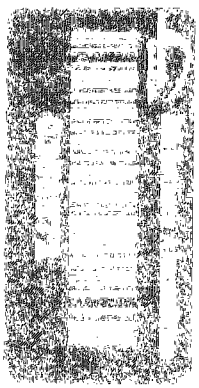

جامعة الإسكندرية
كلية الآداب
قسم الفلسفة

أبو حنيفة النعمان وآراؤه الكلامية

بحث مقدم من الطالب

شمس الدين محمد عبد اللطيف

لنيل درجة الماجستير في الفلسفة الإسلامية من

كلية الآداب جامعة الأسكندرية

أشراف

الأستاذ الدكتور / أحمد محمود صبحي

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

١٤٢٠هـ-١٩٩٩م

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

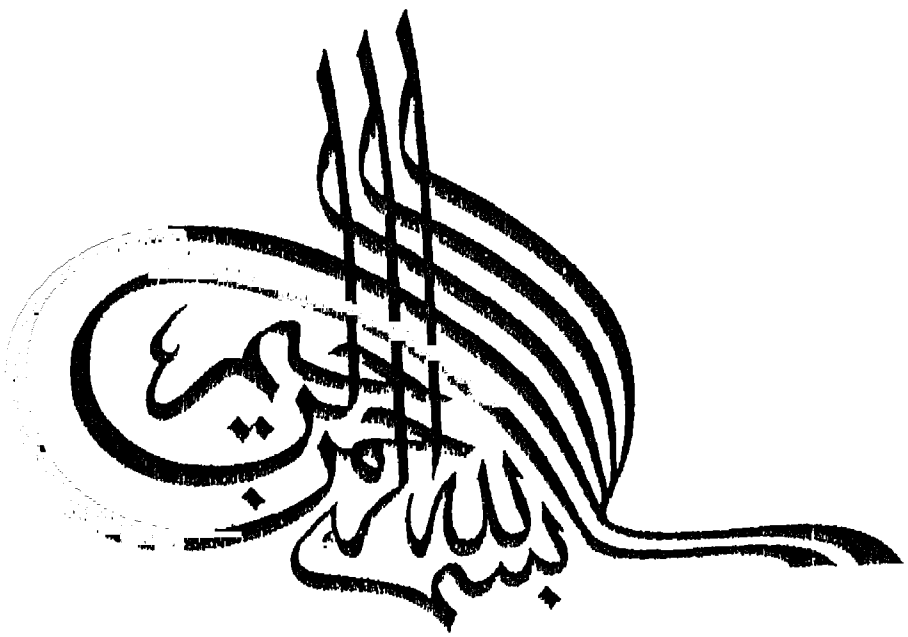

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١
الفصل الأول:	
- حياته ومؤلفاته	٨
- مولده ونسبه	٨
- الحياة العقلية عند العرب فى القرن الأول الهجرى	١١
- ثقافته العلمية	٢٨
- شيوخه وتلاميذه	٣٢
- مؤلفاته	٥٠
الفصل الثانى:	
- المنهج العقلى عند أبى حنيفة	٥٢
- المنهج عند الإمام أبو حنيفة	٥٤
- طبيعة المنهج عند كل من مدرسة أهـــل الـرأى ومدرسة أهل الحديث.	٥٦
- طبيعة المنهج عند الإمام أبى حنيفة	٦٢
- أصول المنهج عند الإمام أبى حنيفة	٦٩
- القرآن الكريم	٧١
- السنة	٧٦
- أقوال الصحابة	٧٨
- الإجماع	٨٢
- القياس	٨٤
- الإستحسان	٨٨
- العرف	٩٠
- موقفه من النقل والعقل	٩١
الفصل الثالث:	
- الذات والصفات	
- مسألة الذات والصفات	١٠١
- موقف أبى حنيفة من الذات والصفات	١٠٣
- موقف السلف من الذات والصفات	١٠٤
- موقف الأشاعرة والماتريدية من الذات والصفات	١٠٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- صفة التكوين ١١٣
- رأى أبى حنيفة فى الصفات بوجه عام ١١٤
- تعقيب ١١٥
- كلام الله
- كلام الله فى الفكر الإسلامى ١١٦
- إتهام الإمام أبى حنيفة بالقول بخلق القرآن ١١٨
- موقف أهل السنة من كلام الله ١٢٠
- موقف المعتزلة ١٢١
- كلام الله لدى الأشاعرة والماتريدية ١٢٢
- الكلام النفسى والكلام اللفظى ١٢٤
- تعقيب ١٢٥
- رؤية الله تعالى
- أدلة أبى حنيفة على رؤية الله تعالى ١٢٨
- مذهب أهل السنة وأدلتهم ١٢٩
- نفاة الرؤية ورد الأشاعرة والماتريدية عليهم ١٣١
- تعقيب ١٣٣

الفصل الرابع:

- مشكلة الجبر والإختيار
- أهمية المشكلة ١٣٦
- موقف الصحابة من الجبر والإختيار ١٣٨
- موقف الإمام أبى حنيفة من الجبر والإختيار ١٤٣
- موقف الإشاعرة والماترتدية من الجبر والإختيار ١٤٤
- نظرية الكسب عند أبى حنيفة ١٤٨
- نظرية الكسب عند الأشاعرة والماترتدية ١٥٠
- الأفعال المتولدة ١٥٣
- الحسن والقبح والصلاح والأصلح ١٥٦
- أهم نقاط الإتفاق ١٦٠
- أهم نقاط الإختلاف ١٦١

الفصل الخامس:

- موقف أبى حنيفة من النبوة والإيمان
- النبوة وحاجة الناس إلى نبى ١٦٣
- عصمة الأنبياء وموقف أبى حنيفة وبعض الفرق منها. ١٦٥
- حقيقة الإيمان ١٦٩
- حقيقة الإيمان عند الإمام أبى حنيفة وبعض الفرق ١٧٠
- الإيمان بين الزيادة والنقصان ١٧٨

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- مشكلة مرتكب الكبيرة ١٨٠
- المذاهب فى مرتكب الكبيرة: ١٨١
- الإسلام والإيمان ١٨٥
- تعقيب ١٨٧

الفصل السادس:

- موقف أبى حنيفة من الفرق الإسلامية
- أبو حنيفة والشيعة ١٩١
- الخوارج ١٩٧
- المبادئ التى تجمع الخوارج ١٩٩
- موقف أبى حنيفة من الخوارج ٢٠٠
- المعتزلة ٢٠٣
- منهج المعتزلة الكلامى ٢٠٤
- الخلاصة ٢٠٥
- منهج أبى حنيفة الكلامى ٢٠٦
- تعقيب ٢٠٩
- خاتمة البحث ٢١١
- المصادر والمراجع ٢١٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

"وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ وَأَعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجرِي تَحتَهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ"

(التوبة: ١٠٠)

عندما انتشر المسلمون فى الأرض وعلت أعلامهم فى كل مكان فى أمد قليل وكانت ألسنتهم تتلوا القرآن، وآذانهم تصيخ السمع له، وكانوا يواجهون العالم كله، العالم الذى فتحوه وغلبوه بالقرآن وبسنة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ما كانوا يملكون فاتجهوا إلى القرآن والسنة يتأملون فيهما ويستخرجون الحقيقة، وبالقرآن أيضا يخاطبون الأمم. أمماً عريقة فى الحضارة راسخة فى الفكر متمكنة فى الجدل، اتجهوا إلى القرآن يقرأونه ويتدبرونه وفى هذا التدبُّر وهذا التفكُّر فى أعماق النص الإلهى بدأ الفكر الإسلامى، اختلفت الطرق بالناس ولكن الأصل واحد هو القرآن. فمن النظر فى قوانين القرآن نشأ الفقه، ومن النظر فيه ككتاب للحكم نشأ علم السياسة، ومن النظر فيه ككتاب يحدد العقائد نشأ الكلام، وهذا العلم كان له دور هام فى إثراء الحياة الفكرية فى الإسلام.

هذا وقد كان للمعتزلة السبق فى نشأة علم الكلام فهم أصحاب الفضل فى تأصيل التيار العقلانى فى الإسلام، فقد اقتحموا كثيراً من القضايا الفكرية التى كان لا يخوض فيها السلف، فقالوا فيها بأراء لا تخلو من جرأة وإقدام، حتى وإن كانوا قد غالوا فى استعمال العقل فى بعض الأحيان، إلا أن كثيراً من الفرق الإسلامية قد تأثرت بالمعتزلة حتى وإن خالفتها فى الرأى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هـذا وقد كان الإمام أبو حنيفة هو أحد أقطاب الفقه الإسلامى بيد أن ظهور علم الكلام وظهور بعض الأفكار التى فيها شطط كما حدث عند الخوارج جعل الإمام أبا حنيفة يتجه إلى علم الكلام، فكان أول مـن وضع مذهب أهل السنة والجماعة فى صورته المبكرة، فقد اتخذ الإمام أبو حنيفة من آرائه الكلامية مذهبا يتوافق مع تعاليم الدين ومع آرائه الفقهية.

وتـرجع أهميـة البحث إلى أن الإمام أبا حنيفة عرف لدى جمهور المسلمين بأنه فقيه تعرض لمسائل الدين لتوضيحها وتبسيطها، إلا أنه لم ينل حظه فى الدراسة بالنسبة لآرائه الكلامية كما ناله فى الفقه، وقد تنبه البغدادى فى كتابه " تاريخ بغداد " إلى هذا " فذكر أنه أول متكلم فى الفقهاء".

ومما يزيد من أهمية هذا البحث هو أن الآراء الكلامية لدى أبى حنيفة قد أثرت تأثيرا قويا فيمن أتوا بعده، وكانت من الفرق التى تأثرت به فرقتا الأشاعرة والماتريدية، وقد كان للأشاعرة تأثيرا قويا على جمهور المسلمين لما ينطوى عليه مذهبها من وسطية واعتدال وهو من سمات الإسلام كدين وسط " **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** " ، وهذه الآراء كان لها من القوة والانتشار ما يجعل العامة والخاصة يعتقدون فيها وينمسكون بها لأنها تتوافق والنصوص القرآنية والسنة النبوية، أما الماتريدى فقد استقى معظم آرائه الكلامية من كتاب الفقه الأكبر للإمام أبى حنيفة.

وقد قام البحث على مجموعة من الفرضيات وهى:

١- عـرض لـلآراء الكلامية لأبى حنيفة محاولين معرفة إذا ما كانت هذه الآراء تتوافق والعقيدة الإسـلامية كمـا جاءت فى القرآن والسنة وهل استطاع أن يفصل فى القضايا الكلامية فصلا دقيقا وإلى أى مدى كان موفقا فى ذلك.

٢- مـدى تأثير هذه الآراء على الفرق الإسلامية كالأشاعرة والماتريدية والفكر الإسلامى بشكل عام.

٣- معرفة موقف أبى حنيفة من الآراء الكلامية التى ذاعت فى عصره وهل كان على اتفاق معها أم لا، وتقييمـه لهذه الآراء ثم نحاول أن نتعرف على ما إذا كان هناك ارتباط منهجى بين فقه أبى حنيفة وارائه الكلامية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤-هل ثمة ارتباط منهجي بين آراء أبي حنيفة الكلامية وبين مكوناته الفكرية وارتباطها بمصادر المعرفة عنده.

هذا وقد جاء عنوان الرسالة: *"أبو حنيفة النعمان وآراؤه الكلامية"*.

وقد قسمت الرسالة إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع.

الفصل الأول:

اتجهت فيه إلى دراسة حياته دراسة متعرف لشخصه، ثم بينت الحياة العقلية عند العرب في القرن الأول الهجرى، ولما للإسلام من تأثير كبير على عقلية العرب ومكوناتهم الفكرية، فقد جاء الإسلام مخاطباً العقل ومستنهضاً للفكر، وقد أثمر ذلك بنتائجه على العقل العربى الذى فهم معانى القرآن وفسر آياته واستنبط منه الأحكام ومن هنا ظهرت الفرق الإسلامية والحركات العلمية، وقد كان ذلك مدخلاً لدراسة عصر الإمام أبى حنيفة وهو العصر الأموى والعباسى، والذى كانت تموج فيه شعوب مختلفة من فرس وروم وهنود، وهو العصر الذى كانت تتصارع فيه تيارات فكرية كثيرة كان لها تأثيرها على عقل الفقيه وتفتق ذهنه لاستخراج المسائل ووضع مقاييس لها بعض العموم لمجموع الفروع المتباينة، ثم عرضت لثقافته العلمية التى استقاها فى الكوفة ثانى المصرين العظيمين، وكان أول ما اتجه إليه فى بداية حياته الثقافية علم أصول الدين كذلك عرضت لشيوخه الذين أخذ عنهم وهم حماد بن أبى سليمان وإبراهيم النخعى وكلاهما من مشيخة فقهاء الرأى، وكذلك أخذ عن فقهاء لهم نزعات مختلفة، كما التقى بالمبرزين فى الفقه الشيعي ومنهم الإمام زيد بن على والإمام جعفر الصادق، فقد استقى علمه من عدة ينابيع كان لها أثر فى تكوينه الفكرى، أما عن تلامذته فقد ذكرت أشهرهم، لأن أبا حنيفة كان له تلامذة كثيرون منهم من كان يرحل إليه ويستمع له ثم يعود إلى بلده، ثم عرضت لمؤلفاته فى علم الكلام، أما كتب الفقه فلم نعثر للإمام على كتاب مدون له بالمعنى الذى عرف فيما بعد من تأليف وتدوين وأن يخلو العالم إلى نفسه فيكتب أو يملى الأشياء الكثيرة، لم يكن الإمام متفرغ للتأليف بقدر تفرغه للتدريس، أما تلامذته فقد دونوا له آراءه وفتاويه والتى كان يراجع ما دون منها ليقره أو ليغيره.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى:

جعلت عنوانه "المنهج العقلى عند أبى حنيفة، وعرضت فيه لطبيعة منهجه الذى تلقاه المخالف والموافق، فاستنكره المخالف وناصره الموافق، ورأى فيها الأول وهو المستمسك بالنص لا يعدوه بدعاً من الآراء فى الدين، فشدد فى النكير وربما لا يكون رأى أبى حنيفة وما أتصف به من ورع وتقى، لذلك كانت تخف حدة النقد لدى المعارض إذا رآه أو علم وجه الدليل، وقد عرضت لطبيعة منهج أهل الحديث وهم المستمسكون بالنص وطبيعة منهج أهل الرأى المكثرون للقياس.

ثم تناولت أصول المنهج، فقد رسم أبو حنيفة منهاجاً للاستنباط وإن لم يكن مفصلاً إلا إنه جامع لأنواع الاجتهاد، ويقوم منهج أبى حنيفة على أصول سبعةٍ وهى:

١- الكتاب ٢- السنة ٣- أقوال الصحابة ٤- القياس

٥- الاستحسان ٦- الإجماع ٧- العرف

وقد تعرضت لهذا المنهج فى الرسالة بالتفصيل محاولا التعرف عليه ومدى ما حققه هذا المنهج من الوصول إلى النتائج المرجوة منه وإلى أى مدى كان هذا المنهج يشكل نسقاً متكاملاً استطاع أبو حنيفة من خلاله أن يدرس مواضيع شتى كونت فى مجملها إنتاجه الفكرى ثم عرضت لموقفه من النقل والعقل موضحاً مذهبه الذى يقوم على إعمال العقل مع عدم مخالفة النص.

الفصل الثالث:

وعنوانه "الذات والصفات" تناولت فيه مسألة الذات والصفات بين أبى حنيفة وبعض الفرق، وأوضحت فيه موقفه الذى يقوم على ركيزة أساسية هى نفى التشبيه والتجسيم.

ثم عرضت لموقفه من صفات الذات وصفات الفعل، ويعتبر الإمام أبو حنيفة أول من وضع فروقاً دقيقة بينها، كذلك تناولت مشكلة كلام الله تعالى بين أبى حنيفة وبعض الفرق وفيها عرضت للإتهام الذى وجه إلى الإمام أبى حنيفة للقول بخلق القرآن وفندت هذه الشبهة ورددت عليها ثم عرضت لموقف أهل السلف من مشكلة خلق القرآن وأوضحت أنهم تبنوا رأى الإمام أحمد بن حنبل بقدم القرآن، ثم عرضت لآراء الماتريدية والأشاعرة والذى جاء وسطاً بين غلو الحنابلة القائلين بالقدم وغلو المعتزلة القائلين بحدوث القرآن وقد عرضت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لآرائهم أيضا، ثم عرضت لآراء أبي حنيفة وتمييزه بين نوعين من الكلام النفسي وهو عنده قديم والكلام اللفظي وهو عنده حادث، وتابعه في هذا القول الماتريدية والأشاعرة.

ثم عرضت لمبحث الرؤية وأدلة أبي حنيفة عليها، وكذلك أهل السنة والماتريديه والأشاعرة. وعرضت آراء المعتزلة التي ذهبت إلى القول بنفي الرؤية.

الفصل الرابع:

وكان عنوانه "مشكلة الجبر والاختيار" عرضت في هذا الفصل صعوبة مشكلة الجبر والاختيار، وأوضحت أنها عصية على الحل لأن الآيات من المتشابهات، ثم عرضت لموقف الصحابة منها وكذلك موقف أبي حنيفة الذي ذهب إلى أن القضاء والقدر والمشيئة هي صفات في الأزل بلا كيف، ولكن هذا لا يعني عنده نوعاً من الجبر، لقد أعلن أبو حنيفة المذهب الكسبي الذي كان سمة لأهل السنة والجماعة، فجميع أفعال العباد من الحركة والسكون هي كسبهم على الحقيقة والله سبحانه وتعالى خالقها، ومعنى ذلك أن الإنسان عند أبي حنيفة يتمتع بحرية الاختيار والإرادة ومن هنا كانت مسئوليته عن أفعاله.

ثم عرضت لآراء الماتريدية والأشاعرة والمعتزلة وأوجه الاتفاق والاختلاف بينهم، ثم عرضت للانتقادات التي وجهت إلى نظرية الكسب.

الفصل الخامس:

وعنوانه "موقف أبي حنيفة من النبوة والإيمان" وتناولت فيه تعريف النبوة وحاجة الناس إلى نبي وأوضحت اتفاقهم على أن للنبي دوراً هاماً في حياة الناس وأنه لا غنى للبشر عنه، ثم تناولت موقف أبي حنيفة من عصمة الأنبياء، فقد ذهب إلى أن الأنبياء معصومون عن الصغائر والكبائر، ثم إن هذه العصمة للأنبياء ثابتة قبل النبوة وبعدها، وهم معصومون عن الكذب خصوصاً فيما يتعلق بعمل الشرع وتبليغ الأحكام، أما عن الإيمان فذهب إلى أن الإيمان هو الإقرار والتصديق، والإيمان لا يزيد ولا ينقص من جهة المؤمن ولكن يزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق، فالمؤمنون متساوون في الإيمان والتوحيد، وإن كانوا متفاضلين في الأعمال ثم عرضت لرأيه في مشكلة مرتكب الكبيرة وآراء بعض الفرق الأخرى وكذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عرضت للإسلام والإيمان فهما كالظهر مع البطن، والدين اسم واقع على الإيمـــان والإســلام والشرائع.

الفصل السادس:

وهو "موقف أبى حنيفة من الفرق الإسلامية" لقد روى الإمام أبو حنيفة عـــن محمـــد الباقر وجعفر الصادق وهما إمامان جليلان وكان متصلاً علمياً بالإمام زيد، وربما هذا الـــذى جعل البعض يذهب إلى أن أبا حنيفة فيه تشيع، لذلك عرضنا لموقفه من فرق الشيعة وموقفـــه من حكام بنى أمية وبنى العباس وموقفه من آل البيت الذى كان يعرف لهم قدرهم ثم عرضنـــا لموقفه من الخوارج ورميهم لصاحب الذنب بالكفر وكيف كان رده عليهم، وكذلك موقفه مـــن المعتزلة، فكلاهما اتخذ العقل سمة من سمات فكره، لكنه لم يجعل العقل هو أصل الأدلة كمـــا فعل المعتزلة وهذا بينته فى منهج كل منهم.

ثم ختمت البحث بخاتمة تحتوى على أهم النتائج ثم قائمة بأهم المصـــادر والمراجـــع المخطوطة والمطبوعة التى اعتمدت عليها فى البحث.

وقد قام المنهج الذى استخدمته فى البحث على دعائم أربع هى:

١-تعريف المصطلحات لغة واصطلاحاً.

٢-عرض تاريخى لبعض الأفكار وذلك فى عجالة سريعة.

٣-عرض آراء أبى حنيفة ومقارنتها بآراء الفرق الأخرى لمعرفة فيما اتفقا وفيما اختلفا.

٤-ثم عرضت للانتقادات التى وجهت لآراء أبى حنيفة، ورأى الباحث فى ذلك، ولهذا جـــاء المنهج تاريخياً تحليلياً مقارناً نقدياً.

وقد خلصنا من هذا البحث إلى أن مناقب الإمام أبى حنيفة كثيرة فهى طوائـــف مـــن الأخبار قد تسودها المبالغة ولا يكاد يخلو خبر منها من الإغراق، فتمييز صحيحها من سقيمها يحتاج إلى مقاييس النقد المستقيمة الذى تقتضيه طبيعة البحث العلمى، الذى أرجو أن أكون قـــد وفقت فيه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبو حنيفة النعمان وأراؤه الكلامية

الفصل الأول: حياته ومؤلفاته

أ - حياته.

ب- عصره.

ج- ثقافته العلمية.

د- شيوخه وتلاميذه.

هـ مؤلفاته.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١- حياة أبي حنيفة:

مولده ونسبه:

ولد أبو حنيفة بالكوفة، فى سنة ٨٠ من الهجرة النبوية على رواية الأكثرين التى يكاد يجمع عليها المؤرخون، وهناك رواية أخرى تقول أنه ولد سنة ٦١هـ ولكن لا مويد لهذه الرواية وهى لا تتفق مع نهاية حياته، إذ أن المتفق عليه أنه لم يمت قبل سنة ١٥٠هـ والأكثرون على أنه مات بعد أن أنزل المنصور به المحنة، وعلى رواية أنه ولد سنة ٦١هـ يكون إنزال المحنة به لتولى القضاء وهو فى سن التسعين، ومن كان فى هذه السن لا يعوض عليه ذلك العمل الخطير، ولو عرض عليه لكان أدنى الحجج إلى طرف لسانه وهو تلك الشيخوخة الفانية، ولكن لم يذكر أى خبر أو رواية أنه اعتذر فلا تستقيم إذن الرواية مع هذه النهاية التى يذكرها جميع المؤرخين له رضى الله عنه.[١]

وعن نسبه فهو النعمان بن ثابت التيمى أبو حنيفة الكوفى مولى بنى تيم الله بن ثعلبه.[٢] فقيه أهل العراق، وإمام أصحاب الرأى، وقيل إنه من أبناء فارس.[٣]

وأبوه هو ثابت بن زوطى الفارسى، فهو فارسى النسب على هذا، وقد كان جده من أهل كابل وقد أسر عند فتح العرب لهذه البلاد، واسترق لبعض بنى تيم بن ثعلبه، ثم أعتق، فكان ولاؤه لهذه القبيلة، وكان هو تيمياً بهذا الولاء، هذه رواية حفيد أبى حنيفة عمر ابن حماد بن أبى حنيفة عن نسبه، ولكن ينكر إسماعيل أخو عمر هذا أن أبا حنيفة هو النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان.[٤] ويقول "والله ما وقع لنا رق قط"

ولا شك أن حفيدى أبى حنيفة قد اختلفا فى سياق النسب ولو ظاهراً، فأولهما ينكر أن أبا ثابت هو زوطى، والثانى يذكر أنه النعمان، والأول يسجل أنه أسر واسترق، والثانى ينفى

١.محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره، الطبعة الثانية - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٣٦٩هـ - ١٩٤٧م - ص١٥.

٢.أبو إسحاق الشيرازى: طبقا الفقهاء - المكتبة العربية - بغداد - ١٣٥٦هـ - ص٦٥ .

٣.شهاب الدين بن حجر العسقلانى - تقريب التهذيب - مطبعة الفاروقية - الهند - ١٣٠٨هـ -ج١/ ص٤١٧.

٤.المرزبان: هو الرئيس من أبناء فارس الأحرار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرق نفياً تاماً. واتفق صاحب الخيرات الحسان بين الروايتين، بأنه لعل جد أبى حنيفة لـــه اسمان أحدهما زوطى والثانى النعمان، وبأن نفى الرق الذى يذكره الثانى ينصب على الأب لا على الجد. وقد نوافقه على هذا التوفيق فيما يتعلق باختلاف الاسم فى الظاهر. ولكن لا نوافـق عليه فيما يتعلق بإثبات الرق على إحدى الروايتين، ونفيه على الرواية الأخـــرى. إذ أن ذلـك النفى المؤكد لا يكون مقصوراً على الأب فقط. وهناك وجهاً آخر: للتوفيـــق بيـــن الروايتيـــن وهو: أن زوطى أو النعمان قد أسر عند فتح بلاده. ولكن يظهر أنه قد من عليه. كما هو الشأن فى معاملة المسلمين لبعض كبراء البلاد المفتوحة حفظاً لوجوههم وسماحة من الإسلام وإذنـاء لقلوبهم وقلوب ذوى قرباهم، ومن يتصلون بهم.[١]

سواء أكان الرق جرى على جده أم لم يجر، فقد ولد هو وأبوه على الحرية، وإن زعـم بعضهم فى قول غير موثوق به من المحققين أن الرق قد جرى على أبيه، وليـــس يفيـــد أبـــا حنيفة، فى قدره وعلمه، وشرف نفسه وغايته، أن يكون الرق قد جرى على جده أو على أبيه، بل أن يكون قد جرى على نفسه هو، فما كان من شرفه من نسب ولا مال ونشب، ولكن كـــان جاهه من المواهب والنفس، والعقل والتقى، وذلك هو الشرف.[٢]

ولقد قال فى هذا المقام المكى: " اعلم أن التقـــوى أعلـــى الأنســـاب، وأقوى أســـباب الثواب"[٣] قال الله تعالى: **"إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ"**، وقال عليه الصـــلاة والســـلام، "الى كل برتقى"، ولذا عد سلمان الفارسى رضى الله عنه من أهل البيت فقال صلى الله عليه وسلم: "سلمان منا أهل البيت"[٤]

ونفى الله ولد نوح عليه السلام من نوح، فقال تعالى: **"إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ"**[٥]، وقرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً الحبشى. وأبعد عمـــه أبـــا لـــهب القرشى. ولقد كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى يحس بذلك الشرف النفسى، فى وقت سادت فيـــه

---

١. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص١٦.

٢. المرجع السابق: نفس الصفحة.

٣. الموفق المكى: مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة - طبعة اولى - مطبعة مجلس إدارة المعارف النظامية - الهند - ١٣٢١هـ - ح١/٦.

٤. سلمان الفارسى: أبو عبدالله - ويقال له سلمان الخير - أصله من أصبهان - وقيل من رامهرمز - من أول مشاهدى الخندق - مات سنة أربع وثلاثين - يقال بلغ ثلاثمائة سنة (تقريب التهذيب ١/١٥٣).

٥. سورة هود: آية ٤٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحاجة، إلى الشرف النسبى. يروى فى هذا أن بعض بنى تميم الذين ينتمى إليهم ولاؤه قال له: أنت مولاى، فقال له أبو حنيفة: '' أنا والله أشرف لك منك لى''، فلم يكن ممن نلت نفوسهم، وتبين ذلك فى بيان حياته.[١]

لم يكن نسبه الفارسى إذن بغاضّ من قدره، ولم يكن بمانعه من أن يسمو إلى الكمال، ويسير فى طريقه، فلم تكنّ نفسه نفس عبد، بل كانت نفس حر أصيل ولقد كان الموالى، "وهو الاسم الذى أطلقه المؤرخون على غير العرب". هم حملة الفقه فى عصر التابعين الذين تلقى عليهم أبو حنيفة، وتخرج على فقههم، فأكثر فقهاء الأمصار فى عصر التابعين وتابعيهم كانوا من الموالى. وكان العلم أكثره فى الموالى فى العصر الذى نشأ فيه أبو حنيفة، فإذا كانوا قد فقدوا فخر النسب فقد آتاهم الله فخر العلم، وهو أزكى وأنمى، وأبقى على الدهر، وأحفظ للذكر.[٢]

ولقد صدقت نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إخباره بأن العلم سيكون فى أولاد فارس، فقد روى البخارى[٣] ومسلم[٤] والشيرازى[٥] والبيهقى[٦] أنه قال: ''لوكان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس'' وقد اختلفت ألفاظه فى هذه الكتب واتحد معناه.

١.محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص١٧.

٢.المرجع السابق - نفس الصفحة.

٣.البخارى هو: أبوعبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفى، الحافظ العلم، صاحب الصحيح وإمام هذا الشأن، روى عن الإمام أحمد وابن المدينى، وخلق، وعنه مسلم، والترمذى وخلق له ترجمة فى: (البداية والنهاية لابن كثير ١١/٢٤، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢/٤، (اللباب ١/١٠١)، تهذيب الأسماء واللغات ص٢٧٤، شذرات الذهب ج٢ص١٣٤).

٤.مسلم هو: ابن الحجاج بن مسلم القشيرى أبو الحسن النيسابورى الإمام الحافظ صاحب "الصحيح".روى عن قتيبه وابن المثنى وخلق. وعنه الترمذى، وأبو عوانه، وخلق: له ترجمه فى: (تاريخ بغداد ٣/١٠٠).

٥.الشيرازى هو الإمام الحافظ الجوال أبو بكر أحمد بن عبدالرحمن بن أحمد الفارسى، سمع الطبرانى وطبقته، وكان صدوقاً حافظاً يحسن هذا الشأن جيداً. مات سنة سبع وأربعمائة(انظر تاريخ بغداد ج٢- ص٤٠).

٦.البيهقى هو: الإمام الحافظ العلامة شيخ خراسان أبوبكر أحمد بن الحسين الخسروجردى. صاحب التصانيف ولد سنة أربع وثمانين وثلاثمائة فى شعبان ولزم الحاكم وتخرج به، واكثر عنه جيداً، له ترجمة فى: (وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٥٧، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥/٧٧.اللباب ١/١٦٥).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب- عصره: الحياة العقلية عند العرب فى القرن الأول الهجرى:

جاء الإسلام فكان له تأثير كبير على عقلية العرب، فقد جاء بتعاليم رفعت المستوى العقلى للعرب إلى درجة كبرى، هذه التعاليم وحدت بين الرجل والمرأة فى مجتمع واحد، ورفعتهم من عبادة أصنام وأوثان وما يقتضية ذلك من انحطاط فى النظر وإسفاف فى الفكر، إلى عبادة إله وراء المادة "لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ" كان الإله عند أكثرهم إله قبيلة وإن اتسع سلطانه فإله قبائل أو إله العرب، فأبانه الإسلام إله العالمين ومدبر الكون وبيده كل شئ وعالماً بكل شئ، فاستطاع العربى بهذه التعاليم أن يرقى إلى فهم إله لا مادة له، واسع العلم، وأفهم الإسلام أن دينهم خير الأديان.

وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدعوة الجديدة، والتى جاءت بلغة العرب وذلك على أساليب كلامهم، ومع هذا لم يكن القرآن الكريم جميعه فى متناولهم يستطيعون فهمه لما فيه من التراكيب التى لم تعهد للعرب فى غرابة أوضاعها التركيبيه.[١]

والقرآن الكريم نصوص قولية لفظية، وهذه النصوص القرآنية يجرى عليها ما يجرى على كل نص لغوى عند فهمه وتفسيره،ذلك أنها جاءت على وفق ما تقتضيه اللغة فى المفردات والتراكيب، ففيها اللفظ المشترك الذى يحتمل أكثر من معنى، وفيها ما يحتمل الحقيقة والمجاز، وطبيعة البشرفقد خلقهم الله مختلفين، فكل إنسان له شخصيته المستقلة، وتفكيره المتميز، وطابعه المتفرد، يبدو ذلك فى مظهره المادى كما فى مخبره المعنوى، كذلك فى تفكيره وميوله ونظرته إلى الأشياء والمواقف والأعمال، وقد نشا من هذا الاختلاف العقلى والفكرى حركة عقلية قوية بعثها الإسلام فى المسلمين.[٢]

جاء القرآن الكريم بإسلوب رائع فى أدب الاختلاف، وإذا استخدمنا التعبير القرآنى قلنا: الجدال بالتى هى أحسن وهو ما أمر الله تعالى به فى كتابه حين قال: "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"[٣] واستخدام القرآن الكريم فى مخاطبة اليهود والنصارى أرق التعبيرات فى مخاطبة الطرف الآخر، وجاء فى القرآن مثل

1.Golin B.Taylor: Thinking about Islami lutter worth Educationial, Guild Fordaud londony 1979.p32.

٢. مصطفى صادق الرافعى: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية -طبعة ثالثة- مطبعة المقطم - القاهرة - ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م - ص٣٣٤.

٣. سورة النحل: آية رقم ١٢٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قوله تعالى: "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ"[١] ، "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ"[٢]، واستخدم البرهان مع الكفار والبرهان طريق العقل وذلك فى قوله تعالى"أَيُّهَا الْكَافِرُونَ بَيِّنَةٍ وَبَيِّنَةٍ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ"[٣]، ولم يخاطب القرآن الكريم المشركين بقوله ''يأيها المشركون'' بل كان يناديهم بقوله ''يا أيها الناس'' ولم يرد فى القرآن خطاب للمشركين بعنوان الشرك أو الكفر، إلا فى سورة "الكافرون"، وذلك لمناسبة خاصة هى قطع الأمل عند المشركين أن يتنازل المسلمون عن أساس عقيدتهم وهو التوحيد، ولهذا كرر فيها المعنى الواحد بصيغ عدة تأكيداً وتثبيتاً، ومع هذا ختمها بهذه الآية الكريمة التى تعد غاية فى السماحة: "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ". وبهذا ارتقى القرآن الكريم بأسلوب الفكر وكون عندهم منهجاً لم يكن مألوفاً قبل ذلك.

منهج القرآن ودلالته العلمية والعقلية:

أى برهان على النبوة أعظم من هذا؟ أمى قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون، بعيداً عن مدارس العلم. صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعملون، فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء، وليقوم عوج الحكماء جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تطرق إليه الريبة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى نشأته أميّاً وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال: إنه أنزل عليه. وأن ذلك الكتاب هو القرآن الكريم فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم.

كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة: نقب على الصحيح منها، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها، ونبه على وجوه العبرة فيها.

حكى عن الأنبياء ما شاء أن يقص علينا من سيرهم، وما كان بينهم وبين أممهم. وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدين برسالاتهم.

أخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم، وما خلطوا فى أحكامهم، وما حرفوا بالتأويل فى كتبهم – وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها، وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما

---

١. سورة النساء: آية رقم ١٧١.

٢. سورة المائدة: آية رقم ١٥.

٣. سورة الأنفال: آية ٤٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قرره ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها، أو البعد بها عن الروح الذى أودعتـــه، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية، كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم.

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقـــى العصـــور عنـــد العرب، وأغزرها مادة فى الفصاحة، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغـــة، وفرسان الخطاب، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكـــاء: هو الغلب فى القول، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب، ومقر الإذعان من العقـول، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك، مما لا يحتاج إلى الإطالة فى بيانه.(١)

وقد اعتمد القرآن الكريم على العقل فى إثبات عقائده. فلم يطلب منا التسليم المجرد بما جاء به بل خاطب العقل واستنهض الفكر، وأورد مذهب المخالفين للعقيدة القرآنية ثم أبطلـــها بالحجج العقلية القوية، واستعان بالموازنة العقلية فى تقريره مثل قوله تعالى **"قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ"**.(٢)

وقد قرر القرآن الكريم للعقل طريقه فى العقيدة الإسلامية، بل أنـــه قـــد تقـــرر بيـــن المسلمين أن من قضايا الدين ما لا يمكن الإعتقاد به إلا عن طريق العقل مثل إثبات وجود الله وقدرته على إرسال الرسل والتصديق بالرسالة نفسها.. وكذلك لوحظ على منهج القرآن الكريم أنه عندما يجئ بما يعلو على العقل فهمه واستيعابه كأحوال (الموت والآخرة).. فـــإنّ القـــرآن الكريم فى هذا أيضاً لا يأتى بما يمكن أن يكون فى مجال العقل مستحيلاً.(٣)

وهكذا: تستطيع أن نلخص الحياة العقلية التى أثارها القرآن الكريـــم: فـــى المجتمـــع العربى..خاصة عندما نقارن بينها وبين تفكيرهم العقلى قبل الإسلام، سنجد أثر القرآن الكريـم واضح فقد وجه المسلمين حتى صار العقل وتفكيره هو المنهج الأساسى فى العقيدة الإسلامية.

هذا وقد جاء الإسلام والأمية شائعة بينهم، خصوصاً فى الأقطار البدوية، فهم ليس لهم علم ولا فلسفة، إنما الكتابة والعلم يكثران حيث يكثر العمران، وقد حكى البلاذرى أن (قريشـاً)

١.محمد عبده: رسالة التوحيد – علق عليها الإمام محمد رشيد رضا – الطبعة السابعة عشر – مكتبة القاهرة بالأزهر – ١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م – ص١٤٦.

٢. سورة الأنعام: آية ٥٠.

٣.محمد عبده: رسالة التوحيد ص١٥٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يكن بها سوى (سبعة عشر) رجلاً كلهم يكتب، فلما جاء الإسلام استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض هؤلاء الذين يعرفون الكتابة لكتابة ما ينزل من القرآن، وقد عرفوا (بكتّاب الوحى).[١]

ولما جاء الإسلام أفاد الحركة العلمية من وجوه عده:

١- أن نشر الدين كان يستتبع الحاجة إلى القارئين الكاتبين، فقد كانت آيات القرآن تكتب ويتلوها من يعرف القراءة على من لم يعرف، وقد جاء فى حديث إسلام (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه بسبب قراءته لسورة"طه".. وقد شجع النبى صلى الله عليه وسلم على تعلم الكتابة وجعلها من دواعى"الفداء" يوم "بدر".

٢-نشر القرآن الكريم بين العرب فكراً جديداً رفع من مستواهم العقلى، كما نشر بينهم كثيراً من أحوال الأمم الأخرى بأسلوب جذاب هيج النفوس إلى الإستزادة، وتعرف ما عند الأمم الأخرى منها كاليهود والنصارى فكان فى ذلك نوع من الثقافة أفاد المسلمين ووسّع مداركهم.

كان للإسلام أثر كبير فى الحياة العقلية، وهو أنه سلك فى دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته من ''علم وقدرة ووحدانية'' مسلكاً يثير العقل، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما فى العالم من ظواهر.... **''أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ''**[٢]، ويقول سبحانه:**''إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ''**[٣] والقرآن الكريم حافل بهذا الضرب من الآيات التى تحث العقل على النظر فى الكون، مما كان له أثر فى نمو الحياة العقلية للمسلمين.

هذا وقد أثمرت حركة الوحى المتصلة نتائجها على العقل العربى المهيأ للقبول، فقد أقبل الناس على القرآن يفهمون معانيه، ويفسرون آياته، ويستنبطون منه الأحكام، وكذلك فعلوا

---

١. أحمد امين: فجر الإسلام – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ص٢٢٤-٢٢٧.

٢. سورة الأعراف: آية ١٨٥.

٣. سورة آل عمران: آية ١٩٠،١٩١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الحديث، وقد بدأت هذه الحركة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذت في الاتساع بعد وفاته، وقد كون الصحابة المدارس المختلفة بالأمصار ومنها: .[١]

أ - مدرسة مكة:

لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خلف فيها معاذاً يفقه أهلها ويعلمهم الحلال والحرام، ويقرئهم القرآن، وكان معاذ من أفضل شباب الأنصار علماً بالحلال والحرام ومن أقرئهم للقرآن، كذلك علمٌ بمكة عبدالله بن عباس في أخريات أيامه، فكان يجلس في البيت الحرام ويعلمّ التفسير والحديث والفقه والأدب، وأشهر من تخرج في هذه المدرسة من التابعين ''مجاهد بن جبر - وعطاء بن أبي رباح - وطاووس ابن كيسان''.[٢] وثلاثتهم من الموالي، واستمرت هذه المدرسة قائمة تتلقى فيها العلم طبقة عن طبقة، وعليها أخذ الإمام الشافعي القرشي علمه - في نشأته الأولى، فقد نشأ في مدرستها يأخذ الحديث والفقه عمن ذكرنا من علمائها، ولما قارب العشرين من عمره تحول إلى المدينة يتم فيها دراسته.

ب- مدرسة المدينة:

كانت مدرسة المدينة أكثر علماً وأوفر شهرة، وقد اشتهر فيها كثير من الصحابة العلماء ''كعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب'' لكن أشهر من امتاز بالعلم فيها وتخصص للحياة العلمية وكثر بها أصحابه وتلاميذه ''زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر بن الخطاب''، وقد تخرج على هؤلاء العلماء من الصحابة في المدينة كثير من علماء التابعين، من أشهرهم ''سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير بن العوام''، وكانت تحفل هذه المدرسة بالحديث والفقه، وقد أنجبت مدرسة المدينة ''مالك بن أنس'' إمام دار الهجرة.

جـ- مدرسة البصرة:

نزل في البصرة عدد كبير من الصحابة، أشهرهم في العلم أبو موسى الأشعري وأنس بن مالك، فأما أبو موسى فيمني وكان يعد من أعلم الصحابة، وأما أنس بن مالك فكان أنصارياً، نزل البصرة وعمر فيها طويلاً، وكان آخر من توفي بالبصرة من الصحابة، وتوفي سنة ٩٢هـ، وقد درس كل من أبي موسى الأشعري وأنس بن مالك القرآن الكريم والحديث،

١.أحمد أمين: فجر الإسلام - ص٢٣٠.

٢.عد الذهبي طاووساً من علماء اليمن وفقهائها ومفتيها، وقال إنه اتفق موته بمكة في الحج وكذلك ابن سعد، وجرينا هنا على ما قاله ابن قيم الجوزية من أنه من فقهاء مكة ومفتيها (عن أحمد امين: فجر الإسلام ص٢٧٥).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأشهر من خرجته مدرسة البصرة فى عهد الأمويين "الحسن البصرى وابن سيرين" وكلاهما من أبناء الموالى، وكلاهما أتاه العلم عن طريق الولاء، فأبو الحسن البصرى كان مولى لزيد بن ثابت، وسيرين أبو محمد كان مولى لأنس بن مالك.

د- مدرسة الكوفة:

نزل الكوفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرون أشهرهم "على بن أبى طالب، وعبدالله بن مسعود" رضى الله عنهما، فكان على بن أبى طالب عمله السياسى فى العراق واشتغاله بالحرب مانعاً له من التفرغ للتعليم، وأما ابن مسعود فهو أكثر الصحابة أثراً علمياً فيها، فكان يفسر القرآن الكريم ويروى الأحاديث التى سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد تكونت فى الكوفة "حركة علمية" كبيرة اشتهر فيها "شريح - الشعبى - النخعى - سعيد بن جبير" ولم تزل هذه الحركة تنمو وتنضج حتى توجت بأبى حنيفة النعمان الكوفى إمام اهل الرأى.

هـ- مدرسة الشام:

فتح الإسلام هذه البلاد ونشر لغته وتعاليمه بها، فأخذ عرب الشام يتعلمون لغة قريش، وبدأ أهل الشام أنفسهم يتعلمونها، ويتكلمون بها مع لغته الآرامية أو اليونانية، كذلك أخذ الإسلام يحل فيها محل النصرانية واليهودية، ودخل كثير من الشاميين فى الإسلام.

ويعتبر عبادة ابن الصامت من مؤسسى المدرسة الدينية بالشام، فقد كان من أفقه الناس فى دين الله ومعه أبو الدرداء والذى كان من أفضل الصحابة فقها، وقد ولى القضاء بدمشق وتوفى فيها.

وقد تخرج فى هذه المدرسة كثير من التابعين، كأبى إدريس الخولانى، ومكحول الدمشقى وعمر بن عبدالعزيز، وتخرج فى هذه المدرسة إمام أهل الشام عبدالرحمن الأوزاعى الذى يقرن بمالك وأبى حنيفة.

و - مدرسة مصر:

فتح المسلمون مصر وأنشأوا فيها حركة عقلية، وكانت هذه الحركة فى بدء عهدها حركة دينية، فكان طبيعياً أن يكون العلم السائد فى هذا العصر فى جميع الأقطار هو علم الدين، بجانب بعض الثقافات الأخرى كالثقافة اليونانية والرومانية، وقد نزل بهذه المدرسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصحابى ''عبدالله بن عمرو بن العاص'' رضى الله عنهما، ويعد بحق مؤسس المدرسة المصرية، فقد أخذ عنه كثير من أهل مصر، وكانوا يكتبون عنه ما يحدث.

وقد انتشر العلم والمدارس العلمية بفضل القرآن الكريم وبفضل ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم- من سنن ثم جاء الصحابة رضوان الله عليهم فساروا على دربه صلى الله عليه وسلم وأحيوا سننه، إلى أن جاء عصر الدولة الأموية والتى شهدت مولد أبى حنيفة (٨٠هـ) فى خلافة عبدالملك بن مروان الأموى، وعاش إلى سنة (١٥٠هـ) وأدرك عهد العباسيين، فهو أدرك العهد الأموى فى عنفوانه وقوته. ثم فى تحدره وتهاويه وأدرك الدولة العباسية فى نشأتها قوية ظافرة عنيفة مسيطرة.[١]

وقد أدرك أبو حنيفة العصر الأموى أكثر مما أدرك من العصر العباسى، فقد عاش فى العصر الأموى اثنتين وخمسين سنة، وهى السن التى تربى فيها، وبلغ أشده، حتى بلغ أوجه العلمى، ونضجه الفكرى الكامل، ولم يدرك من العصر العباسى إلا ثمانى عشرة سنة، وفى هذه السن يغلب على الشخص ألا يأخذ من الجديد. إذ استقامت عاداته الفكرية ومناهجه العلمية وصار ينتج الكثير ولا يأخذ إلا القليل، ولا يصح أن نقول لا يأخذ مطلقاً، لأن العقل البشرى طلعة يتطلع إلى علم ما لم يعلم، وتعرف على ما يجهل دائماً، وخصوصاً عقول العلماء المخلصين فإنهم يطلبون المزيد دائماً، وإن كانوا فى كهولتهم يعطون الكثير، ويأخذون القليل، ويؤثرون أكثر مما يتأثرون[٢]، وعلى ذلك يجب أن نتصور أن ما أخذه أبو حنيفة من عصره كان أكثره من الأموى، وأقله من العباسى.

وفى الحق أن الفترة بين آخر العصر الأموى، وصدر العصر العباسى وهو الذى عاش فيه أبو حنيفة. ليست كبيرة من ناحية الروح العلمى، وخصوصاً الجانب الدينى منه، وذلك لأن الدور الذى كان فى العصر العباسى إنما هو نمو لما كان فى آخر العصر الأموى، وهو نتائج، مقدمتها كانت قبله وجزء من الطريق الذى كان ابتداؤه هنالك، فمثل العصور من ناحية روحها العلمى والاجتماعى كمثل الأنهار المتصلة تسير المياه فيها متدافقة متلاحقة، لا تختلف كثيراً فى ألوانها وطعمها إلا بمقدار قليل من مجراها، وليس لنزعة الدولة ولونها

---

١. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص٧١.

٢. المرجع السابق - ص٧٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السياسي أثر إلا بمقدار التنمية أو التعويق، أو التوجيه، والأصل ثابت، يسير ببطء أو بسرعة على حسب ما تقدمه الدولة من معونة أو تثبيط، وهو في سرعته وبطئه واصل إلى الغاية.[١]

وإن الروح العلمي والاجتماعي الذي سيطر في الدولة الأموية كان من عمل الجماعة لا من أعمال الدولة، فالعلم قامت به تلك الجماعة الكريمة التي ورثت علم الصحابة، ثم احتضنته فأزهر، وأتى بأيدع الثمرات، وكان بجوارها هؤلاء الذين ورثوا حضارات الأمم التي غلبها المسلمون، وعلومها، فكانوا يزودون العربية ببعض علم هذه الأمم، أما فيما يدلون به من آراء، أو في إرسال الفكر التي يترجمونها من اللسان الفارسي وغيره، وقد ابتدأت الترجمة في العصر الأموي، وحسبك أن تعلم أن ساعهم كليلة ودمنه، والأدب الصغير والأدب الكبير، عاشوا أكثر حياتهم في العصر الأموي، فإذا وجدنا العلم الديني ينمو في العصر العباسي، والترجمة تذيع وتنتشر وتكثر وتمده بالعون، فإنما ذلك من زيادة المقدار، وحسن التوجيه، وتنوعه، لامن الإنشاء ولا الابتداء. .[٢]

وإذا كان أبو حنيفة عاش في العصرين كما علمت، وجب علينا أن نشير إشارة موجزة إلى الحياة السياسية في العصر الأموي والعباسي، ثم الحياة الاجتماعية والعلمية وامتدادها في صدر العصر العباسي الأول.

ولنبدأ بالناحية السياسة، وهنا نجد الظاهرة الأولى في قيام الدولة الأموية، فإنها قامت بعد سلطان الخلفاء الأربعة، وقد كان الخليفة يختار من بين الممتازين المسلمين، بترشيح من الخليفة الذي يسبقه، كما كان الأمر في خلافة عمر، أو من غير ترشيح كما كان الأمر في خلافه أبي بكر وعلي، أو بأمر وسط بينهما كما كان الأمر في اختيار عثمان رضي الله عنه، فلما جاءت الدولة الأموية صارت الخلافة ملكاً عضوضاً، وإذا كان مؤسس هذه الدولة قد ارتضته طائفة كبيرة من المسلمين خليفة، فبقية من حملوا ذلك الاسم من بعده لم يكن من حقهم أن يحسبوا أنهم ولوا أمر المسلمين باختيار حر من جماهير المسلمين، ولذلك كانت الاضطرابات، والانتفاضات تتخلل عصور الدولة الأموية، فإن سكتت ففي الظاهر، والقلوب تغلي بنيران الحقد، ولم يكن كثيرون منهم تمنعهم حريجة دينية من إنزال الأذى ببعض من لهم

١.محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص٧٢.

٢.المرجع السابق - نفس الصفحة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكانة بين المسلمين ، فيريد بن معاوية[١]. ينتقض عليه أبناء الأنصار، فيبيح مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم للجند يعيثون فيها فسادا من غير رادع من دين، ولا مراعاة لحرمة ويرفض بيعته الحسين[٢]. بن على سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنها تخالف أصول الحكم فى الإسلام، ويخرج عليه حاملا سيفه، فيقتله أعوان يزيد قتلة فاجرة، ويذهب دمه هدرا من غير أن يرعى حرمة قرابة أو دين، ثم يتوالى فى آخر الدولة الأموية خروج مؤيدو على، ويتوالى القتل الفاجر فيهم، فيقتل زيد بن على ويقتل ابنه، ويقتل عبد الله بن يحيى، ولم يكن ذلك فقط مما تحدى به الأمويون النفوس المحبة لآل البيت، بل كان لسن على ابن طالب أمرا لازما على المنابر، كأنه سنة متبعة، وهى بدعة انمة ابتدعها معاوية بن أبى سفيان، واستنكرها عليه المسلمون، حتى لقد أرسلت إليه أم المؤمنين زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة[٣]. كتابا تقول فيه: " إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم وذلك أنكم تلعنون عليا بن أبى طالب، ومن أحبه، وأشهد أن الله أحب ورسوله" واستمر لعن على على المنابر ، حتى أبطله عادل الأمويين عمر بن عبد العزيز[٤].

ولقد كان فى الأمويين نزعة عربية شديدة، وقد أحيوا فيها شيئا كثيرا من تراث العرب قبل الإسلام، وهذا التراث قد يكون فيه المحمود الذى لايذم ، ولكنهم غالوا غلوا شديدا وصلوا به إلى درجة التعصب على غير العرب، وهضم حقوقهم، وهم فى الشراع سواء مع سائر

---

١. يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الأموى ــ أبو خالد ــ ولى الخلافة سنة ستين ــ ومات سنة أربع وستين ــ ولم يكمل الأربعين ــ (انظر تقريب التهذيب ١/٧٠)

٢. الحسن بن على بن أبى طالب الهاشمى ــ أبو عبد الله المدنى ــ سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وريحانته ــ حفظ عنه ــ استشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين، وله ست وخمسون سنة. (انظر تقريب التهذيب ١/٩٣)، (تهذيب التهذيب ٢/٣٤٥).

٣. أم سلمة هى: هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم المخزومية تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم سنة أربع، وقيل ثلاث، وكانت فاضلة حليمة لها فى الصحيحين تسعة وعشرون حديثا. ماتت فى المدينة سنة اثنين وستين وقيل سنة تسع وخمسين، ودفنت بالبقيع. (انظر الرياض المستطابة، ص ٣١١).

٤. عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاصى الأموى، أمير المؤمنين، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، ولى إمرة المدينة للوليد، وكان مع سليمان كوزير، وولى الخلافة بعده، فعد من الخلفاء الراشدين، من الرابعة،مات فى رجب سنة إحدى ومائة، وله أربعون سنة، ومدة خلافته سنتان ونصف (تهذيب التهذيب٢/٦٠).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسلمين ، فإن الناس جميعا سواء فى الإسلام، فقد أوقع الأمويون بالموالى ظلما شديدا حتى لقد حرموهم حقوقهم فى غنائم الجيش إذا غزوا، وخالفوا بذلك شرعة الله التى شرعها فى الغنائم، ولذلك أسهم الموالى فى الانتقاض على الأمويين، ولذلك كانت البلاد الإسلامية بسبب مانزل بها تموج بالفتن، وكانت المؤامرة المستترة، للانتفاض بشكل أحكم، فكان التدبير والدعوة للخلافة العباسية، حتى كا كان من قيام العباسيين وإتبان الدولة الأموية من قواعدها.

هذا هو حكم الأمويين فى جملته ونواحيه التى أثارت الجماهير، وقد يكون له نواحى خير تحمد ونواحى تذم، وقد رأى أبو حنيفة عندما رأت عينه الدنيا حكم الأمويين فى أقسى مظاهره، وأعنف صوره، أى حكم الحجاج[١]. بن يوسف الثقفى الطاغية الأموى، فإن الحجاج قد مات، وأبو حنيفة فى نحو الخامسة عشرة، وهى سن تدرك وتفهم، وقد رأى بذلك الحكم الأموى فى أعنف أشكاله، وأقسى مظاهره، ولاشك أن لذلك أثره فى نفس ذلك الفتى المولى، وفى تقديره لحكم هذه الدولة، ولقد كان ذلك التقدير ينمو ويكبر كلما كبر، ورأى ما يرتكبون مع عترة الرسول، حتى كان منهم له ما كان من اضطهاد بالسجن والتعذيب، ولم ينجه إلا الفرار، وأن يأوى إلى بيت الله الحرام.

فلما كانت الدولة العباسية أمن من بعد خوف، ورجا أن تكون يداها أرحم. لأن رحمها أقرب، ولأنها جاءت بعد الشدة والكوارث، ولقد بايع أبا العباس السفاح سمعا مختارا، وكان لسان الفقهاء الناطق، ولكن ما إن جاء عصر أبى جعفر[٢]. حتى أخذ يدعم الدولة بدعائم فيها عنف وحزم، لا رفق فيها ولا هوادة، فألقى بشيوخها فى غيابات السجن، وصارت دماء العلويين تراق فى غير حرب، ورأى فى حكم المنصور امتدادا لحكم الأمويين، وإن تغير الاسم وتغيرت البطاقة فكان بينهما ما ذكرنا، وانتهى الأمر بالأذى الذى نزل بأبى حنيفة رضى الله عنه، وقارن وفاته.

---

١. الحجاج بن يوسف بن أبى عقيل الثقفى، الأمير ، المشهور، الظالم، وقع ذكره وكلامه فى الصحيحين وغيرهما، وليس بأهل بأن يروى عنه، ولى إمرة العراق عشرين سنة، ومات سنة خمس وتسعين. (انظر تقريب التهذيب ٨١/١، ٨٢ – تهذيب التهذيب ٢١٠/٢).

٢. أبو جعفر هو: المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، وأمه سلامة البربرية أم ولد، ولد سنة خمس وتسعين، وأدرك جده ولم يرو عنه وروى عن أبيه، وعن عطاء بن يسار، وعنه ولده المهدى، وبويع بالخلافة بعهد من أخيه، وكان فحل بنى العباس هيبة وشجاعة وحزما. (تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص ٢٥٩).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد عاش أبو حنيفة بالعراق، فكان به مولده ومنشؤه ومقامه ومدرسته ومدن العـــراق في آخر العصر الأموى وصدر العصر العباسى كانت تموج بعناصر مختلفـــة مـــن فـــرس، وروم، وهنود مع العرب، وإن المجتمع الذى يكون على هذه الشـــاكلة تكـــثر فيـــه الأحـــداث الاجتماعية، إذ تبدو فيه مختلفة من تفاعل تلك الخصائص، ولكل حادثة حكمها من الشرع فـإن الشريعة الإسلامية شريعة عامة تحكم بالإباحة والمنع فى كل الأحداث، ومن شأن دراسة هـذه الأحداث أن توسع عقل الفقيه، وتفتق ذهنه إلى استخراج المسائل، وتوسع فيه ناحية الفـــرض والتصور، ووضع مقاييس، لها بعض العموم لمجموع الفروع المتباينة.[١]

ثم إن العراق مع هذه الميزة الاجتماعية التى امتاز بها، له ميزة أخرى فكريـــة، فقـــد كان موطن الفرق المختلفة، والنحل المتباينة، ففى ربوعه كان الشيعة.[٢] معتدلوهم وغلاتـــهم، وفيه كان المعتزلة[٣]، وفيه كان الجهمية.[٤]، والمرجئة.[٥] وغيرهم، ففيه بهذا حركة فكريـــة، ويظهر أنه من قديم الزمان كان محلاً للنزعات العقلية المتضاربة، وبذلك نـــرى أن العـــراق

---

١. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص٧٥.

٢.الشيعة: هم الذين شايعوا علياً رضى الله عنه على الخصوص. وقالوا بإمامته وخلافتـــه نصـــا ووصيـــة، إما جليا، وإما خفياً. واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من اولاده، وإن خرجت لظلم يكون من غيره، أو لتقيـــه من عنده.(الملل والنحل:١/١٤٦)

٣.المعتزلة: اختلف الكتاب والباحثون في وقت ظهور فرقة المعتزلة والسبب في تسميتها بذلك فالأكثرون على أن هذه الفرقة لم تنشأ كفرقة واضحة المعالم الا بعد إختلاف واصل بن عطاء مع شيخه الحســـن البصـــرى حول مسألة مرتكب الكبيرة واعتزاله مجلسه إلى سارية أخرى من سوارى مسجد البصرة وانضمام عمـــرو بن عبيد إليه فقال الحسن اعتزلنا واصل. وقال الناس إنهما اعتزلا قول الأمة فسمو معتزلة.(انظر - تـــاريخ الإسلام ج١- ص٤٢٩)وذهب البعض إلى أن اسم المعتزلة قد أطلق قبل ذلك، على جمع من الصحابـــة لـــم يلغمسوا فى الحروب واعتزلوها ولم يبايعوا عليا أو اعتزلوا بيعته، أو انه أطلق على قوم من أصحاب علـــى اعتزلوا السياسة والحروب وانصرفوا إلى الدين والعبادة عند تنازل الحسن بن على لمعاوية عـــن الخلافـــة (انظر تاريخ الطبرى ج٧/٢٤٤) والمعتزلة أنفسهم يرفضون هذا الاسم ويلقبون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ويرون أنه أطلق عليهم من قبل خصومهم ويعدون منهم بعض آل البيت وعلى رأسهم على بن أبى طـــالب ويجعلونه فى الطبقة الأولى من طبقاتهم، ويذكرون أنه اول من خاض فى علم الكلام والتوحيد من الصحابة، ويذكرون فى الطبقة الثانية منهم ابنه الحسين وولده على زين العابدين ومحمد بن الحنيفة وولده أبا هاشـــم. كما يعدون الحسن البصرى منهم لأنه كان يقول فى أفعال الإنسان مقالة القدرية كما قال المعتزلة، ويقول فى مرتكب الكبيرة كلاماً مقارباً لهم فهو يقول: أنه منافق وبذلك لا يبعد كثيراً عنهم لأن المنـــافق فـــى النـــار (انظر:تاريخ المذاهب الإسلامية لأبى زهرة ص١٢٤).

٤.الجهمية: أصحاب جهم بن صفوان وهم من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله مسلم بن أحـــوز المازنى بمرو فى آخر ملك بن أمية، وافق المعتزلة فى نفى الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشـــياء.(الملـــل والنحل ١/٨٦).

٥. المرجئة: احداهما بمعنى التأخير كما فى قوله تعالى ''قالوا أرجه وأخاه'' أى أمهله وأخـــره. والثـــانى: إعطاء الرجاء أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح، لأنهم كانوا يقولون: لاتضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضى عليه بحكم ما فى الدنيا، مع كونه من أهل الجنه، أو من أهل النار. (الملل والنحل ج١/١٣٩).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مزدحم الآراء في المعتقدات في الإسلام وفي القديم أيضا، وذلك لأنه كان يسكنه منذ القدم عدة طوائف من نحل مختلفة، والمذاهب التي نشأت به في القديم يبدو فيها اختلاط العقائد المتضاربة، فالديصانية[١] والمانوية[٢] ليست إلا مزجاً لثنوية المجوس[٣] بالمبادئ النصرانية، وهكذا ترى فيه كثيراً مما ظهر من النحل المختلفة، ومن استنباط، وعقيدة من عقيدتين او عدة عقائد.

هذا هو العراق الذي عاش فيه أبو حنيفة، ولقد كان في العصر الأموي وصدر العصر العباسي، مستراداً لأفكار ومذاهب تدس بين المسلمين في الخفاء فتفسد عقيدتهم، وتحيرهم في أمور دينهم، وإثارة المنازعات الفكرية بينهم، له مظاهره الواقعة التي لا يشك في دلالتها، على أن أفكاراً غريبة عن الإسلام والمسلمين تذاع بينهم لتثير جدلهم، كذلك كانت هناك حركة فكرية ابتدأت في العصر الأموي، ونمت وأتت أكلها في العصر العباسي تلك هي حركة الاتصال بالفلسفة اليونانية، فقد ابتدأت في عصر الأمويين فقد قال ابن خلكان فيه: ''إن خالد بن يزيد بن معاوية، كان من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صنعة الكيمياء والطب، وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته، وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس الروسي وله فيها ثلاث رسائل تضمنت إحداها ما جرى له مع مريانس المذكور، وصورة تعلمه منه، والرموز التي أشار إليها.

١.الديصانية: أصحاب ديصان. أثبتوا أصلين: نوراً، وظلاماً، فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً. فما كان من خير ونفع، وطيب وحسن، فمن النور، وما كان من شر، وضرر، وفتن، وقبح، فمن الظلام، وزعموا ان النور: حي عالم، قادر، حساس،مدرك،ومنه تكون الحركة والحياة. والظلام: ميت، جاهل، عاجز، جماد، موات،لافعل له ولا تمييز(الملل والنحل ٢/٥٥).

٢.المانوية: أصحاب مانى بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابوربن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام.(الملل والنحل ٢/٤٩).

٣.المجوس: يقال لهم الدين الأكبر، والملة العظمى، إذا كانت دعوة الأنبياء عليهم السلام بعد إبراهيم الخليل عليه السلام لم تكن في العموم كالدعوة الخليلية ولم يثبت لها من القوة والشوكة والملك والسيف مثل الملة الحنفية، إذا كانت ملوك العجم كلها على ملة إبراهيم عليه السلام، وجميع من كان في زمان كل واحد منهم من الرعايا في البلاد على أديان ملوكهم، وكان لملوكهم مرجع هو:''موبذ موبذان'' يعلى أعلم العلماء، وأقدم الحكماء، يصدرون عن أمره ولا يخالفونه، ولا يرجعون إلى رأية، ويعظمونه تعظيم السلاطين لخلفاء الوقت.(انظر الملل والنحل ٢/٣٥) وتعتبر الزروانية من أشهر مذاهب المجوس، ويعتقد أتباع هذا المذهب أن الشيطان من مصدر ردئ وانه كان مع الله. (انظر وجاء دور المجوس ص٢٢).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولقد نمى ذلك الاتصال باتساع حركة الترجمة التى نقلت إرسال الفكر اليونانى والفارسى والهندى والبوذى فى العصر العباسى الذى كان يسوده الاستقرار السياسى والاقتصادى، وكان الخليفة فيه هو حامى الفنون والعلوم وفى عهده تم بناء المكتبات الضخمة والمعاهد الأكاديمية.[١] ولقد كان لذلك أثره فى الفكر الاسلامى، وكان تأثيره مختلف الأنواع، على حسب قوة العقل والدين عند من نال من هذه الفلسفة، فمن الناس من كانت له عقول مستقيمة، وإيمان صادق، فكانوا بقوة عقولهم وقوة إيمانهم يسيطرون على ما يرد إليهم من أفكار فتهضمها نفوسهم ويستفيدون منها نماءً فى تفكيرهم ومداركهم، ورياضة فى عقولهم، ومنهم من لا تقوى نفوسهم على احتمالها، فتضطرب عقولهم عند ورودها بين قديمها وجديدها، فتكون فى فوضى فكرية لا استقرار فيها، ولذلك رأينا قوماً بعضهم شعراء، وبعضهم كتاب وبعضهم ينتسبون للعلم، قد غرتهم تلك الأفكار فلم تقو على هضمها عقولهم فاضطربوا وصاروا حائرين.[٢]

ولقد وجد بجوار هؤلاء زنادقة[٣] كانوا يعلنون آراءً مفسدة هادمة للإسلام ويدبرون الأمر كيداً لأهله وتهويناً لشأنه، ومنهم من كانوا يريدون نقض الحكم الإسلامى، وإحياء الحكم الفارسى القديم، كما حدث من المقنع الخراسانى، الذى خرج على الدولة العباسية من بعد فى عهد المهدى.

كانت الأمور السابقة كلها سبباً فى حدوث منازعات فكرية، والتحام بين آراء وعقائد متباينة، وإذا كان أبو حنيفة رضى الله عنه، قد عاش فى هذا العصر، وفى العراق مكان ذلك التناحر الفكرى، فلابد أنه خاض فيه، وقد خاض فيه خوض المسلم الفاهم لدينه، فدافع الأهواء المختلفة والنحل المتباينة، وكان له فى الكلام مع الفرق المختلفة رأى معلوم ومقام مشهود، وتكون من مجموع ما أثر عنه – آراء حول العقيدة.

هذه هى المنازع الفكرية، ونوع تأثيرها فى ذلك الإمام العظيم ولنتجه إلى ذكر كلمة عن هذا العصر من ناحية علوم الدين، لقد كان العلم فى صدر الإسلام، الاتجاه فيه إلى التلقى بالاستماع، ولكن عندما انصرفت طوائف من الناس للعلوم المختلفة يدرسونها، ويذكرونها،

---

1. Gohn B.Toylor: Thinking about islam Lutterworth Educational Guild ford and london - 1979.p-39.

٢.محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره- ص٧٨.

٣. الزنديق: هو الذى يضمر الكفر ويظهر الإيمان، وقيل هو:زند أى دين المرأة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اتجه العلماء في آخر العصر الأموي إلى التدوين، وأخذت العلوم الدينية والعربية تتميز، وصار كل علم له علماء قد اختصوا به، يتفننون فيه. ويضبطون قواعده، لذلك أخذ الفقهاء والمحدثون في تدوين الحديث والفقه في آخر العصر الأموي، فقد كان فقهاء الحجاز يجمعون فتاوى عبدالله بن عمر، والسيدة عائشة وابن عباس، ومن جاء بعدهم من كبار التابعين في المدينة المنورة، وينظرون فيها ويستنبطون منها، ويفرعون عليها، كما كان العراقيون يجمعون فتاوى عبدالله بن مسعود[١] وقضايا علي وفتاواه وقضايا شريح وغيره من قضاة الكوفة، ثم يستخرجون منها ويستنبطون، فلما جاء العصر العباسي اتسعت آفاق التدوين في الحديث ترتيباً فقهياً.

ولم يكن مقصوراً على هؤلاء، فقد كان فقهاء الشيعة يدونون آراءهم وكانت هذه الآراء معروفة لدى أبي حنيفة فقد كان متصلاً بزيد رضي الله عنه، وكان متصلاً اتصالاً علمياً بجعفر الصادق ومحمد الباقر، فهو كان بلا ريب على علم بفقه الزيدية[٢] وأئمة الإمامية الإثنا عشرية والإسماعيلية.[٣]

والعصر كان عصر مجادلات ومناظرات. فمناظرات شديدة اللجب، قوية الأثر بين الفرق المختلفة وبين أهل السنة والجماعة، وبين الخوارج وغيرهم وبين أهل الأهواء جملة، وبين المعتزلة، وكان العلماء يرحلون لأجل هذه المناظرات وقد رحل الإمام أبو حنيفة إلى البصرة

---

١. ابن مسعود هو: عبدالله بن مسعود أبو عبدالرحمن الهزلي صاحبه رسول الله صلى عليه وسلم وخادمه وأحد السابقين الأولين، ومن كبار البدريين، ومن نبلاء الفقهاء المقرئين، وكان ممن يتحرى في الأمراء، مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين وله نحو من ستين سنة، له ترجمة في: الاصابة (٣٦٠/٢).

٢. الشيعة الزيدية هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، ساقوا الإمامة في أولاد فاطمة رضي الله عنها، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمي عالم شجاع سخي خرج بالإمامة، أن يكون إماماً واجب الطاعة، سواء كان من اولاد الحسن، أو من أولاد الحسين رضي الله عنهما.(الملل والنحل ١/١٥٥).

٣. الإسماعيلية: وقد امتازت عن الموسوية وعن الإثني عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر، وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه، وقالوا: لم يتزوج الصادق رضي الله عنه على أمه بواحدة من النساء، ولا تسرى بجارية كسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق خديجة رضي الله عنها، وكسنة علي رضي الله عنه في حق فاطمة رضي الله عنها(الملل والنحل-١/١٩١).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نحو اثنتين وعشرين مرة لأجل مناظرة الفرق الكثيرة المختلفة، وكان بعض علماء البصرة يرحلون إلى الكوفة ليناظروا أهلها.[١]

وكانت المناظرة في موسم الحج وعند التقاء العلماء، فترى أبا حنيفة يتناظر مع الأوزاعي[٢] ومع مالك رضي الله عنهم في الحجاز، ولقد وجد نوع من الجدل سببه التعصب للبلد، فعلماء البصرة يجادلون علماء من الكوفة، ويتعصبُ كل لبلده راجياً بنصرته فخاره، ودافعاً بالهزيمة عاره، وكان ذلك أحياناً يجري بين الممتازين المخلصين من العلماء، ولننقل نوعاً من هذا الصنف وإن كان خفيفاً، فمنها ما كان في المحادثة التي كانت في أول لقاء بين يوسف بن خالد السمتي[٣] وأبي حنيفة، وها هي ذي كما في مناقب ابن البزازي: "قال هلال بن يحيى الرأي، سمعت يوسف بن خالد السمتي يقول: كنت اختلف إلى عثمان البتي، وكان يذهب مذهب الحسن البصري، وابن سيرين، فأخذت مذاهبهم، وناظرت عليها، ثم استأذن للخروج إلى الكوفة لتلقى مشايخها، والنظر في مذاهبهم، والاستماع عنهم فدلوني على سليمان الأعمش [٤]، لأنه أقدمهم في الحديث.

وكانت معي مسائل في الحديث، وكنت سألت عنها المحدثين، فلم أجد أحداً يعرفها، فذكرت ذلك في حلقة الأعمش فقال: ائتوني به، فمضيت إليه، فقال: لعلك تقول: أهل البصرة أعلم من أهل الكوفة، كلا ورب البيت الحرام، ماذاك كذلك. وما أخرجت البصرة إلا قاصاً أو معبراً أو نائحاً، والله لو لم يكن بالكوفة إلا رجل ليس من عربها، ولكن من مواليها، يعلم من المسائل ما لا يعلمه الحسن، ولا ابن سيرين، ولا قتادة[٥] ولا البتي ولا غيرهم، وغضب على غضباً شديداً، حتى خفت أن يضربني بعصاه، ثم قال لبعض من حضره: اذهب إلى مجلس

---

١. المكي: المناقب - ج١ - ص٥٩، ٦٠، ٦١.

٢. الأوزاعي هو: عبدالرحمن الأوزاعي بن عمرو، أبو عمرو. إمام أهل الشام في وقته، نزيل بيروت. قال ابن سعد: ثقة،مأموناً، صدوقاً. ولد سنة ثمان وثمانين ومات في الحمام سنة سبع وخمسين ومائة.(انظر تقريب التهذيب ١/٨٥).

٣. يوسف بن خالد بن عمير السمتي، بفتح المهملة وسكون الميم بعدها مثناة، أبو خالد البصري، مولى بني ليث، تركوه، وكذبه ابن معين، وكان من فقهاء الحنفية من الثامنة، (انظر تقريب التهذيب ١/٤٠٤).

٤. سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي، أبو محمد الكوفي الأعمش، ثقة حافظ، عارف بالقراءة، ورع، لكنه يدلس، من الخامسة، ولد سنة احدى وستين (انظر تقريب التهذيب ١/١٦٠).

٥. قتادة هو: ابن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري الأكمه، أحد الأعلام. قال أحمد: كان أحفظ اهل البصرة- مات سنة سبع عشرة ومائة. له ترجمة في (إرشاد الأريب ٦/٢٠٢، العبر ١/١٤٦).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النعمان، فوالله لو رأى أصغر أصحابه لعلم أنه لو قام أهل الموقف لأوسعهم جواباً، ودخل فى قلبى من الرعب ما الله تعالى به عالم، فقام الرجل، واتبعته، فلما خرج من المسجد، قال: النعمان يكون فى بنى حرام، فسل عنه، فإنه بهذه المسائل أعلم، ولى شغل لا يمكن لأى المصير إليه، فخرجت أسأل عنه قبيلة بعد قبيلة، حتى أتيت بنى حرام فى آخر القبائل، وقد دخل وقت العصر، فإذا بكهل قد أقبل، حسن الوجه حسن الثياب وخلفه غلام أشبه الناس به، فلما دنا سلم، ثم صعد المئذنة، فأذن أذاناً حسناً، فتوسمت فيه أنه النعمان، ثم نزل فصلى ركعتين خفيفتين تامتين أشبه بصلاة الحسن وابن سيرين، واجتمع نفر من أصحابه، وتقدم فأقام وصلى بهم صلاة أهل البصرة فلما استند إلى المحراب، وأقبل بوجهه إلى الناس، فحياهم، ثم سأل كل واحد من أصحابه عن حاله، فلما انتهى إلى قال: كأنك غريب من أهل البصرة، وقد نهيت عن مجالستنا؟! قلت: نعم، قال: ما اسمك؟ فأخبرته باسمى ونسبى، ثم سأل عن كنيتى، فأخبرته، فقال: أكنت من المختلفين إلى البتى؟ قلت: نعم، قال: لو أدركنى لترك كثيراً من قوله، ثم قال: هات ما معك، وابدأ قبل أصحابك، فإن بك وحشة مغربة، وحق لمثلك من المتفقهة التقدم، ولكل داخل دهشة، ولكل قادم حاجة، فسألته عن المسائل التى كانت مشكلة على فأجابنى، فحكيت: ما جرى بينى وبين الأعمش فقال: حفظك الله يا أبا محمد، يجب أن ينوه باسم ولده.

ولئن كان الحسن وابن سيرين فاضلين، كان كل منهما يتكلم فى الآخر بما يصدق قول الأعمش، كان ابن سيرين يعرض بالحسن المعتزلى، ويقول: يأخذ الجوائز من السلطان، ويروى المحالات، ويقول بالهوى، ويقول بالقدر، كأنه إله الأرض يتفرد بالفعل دون ربه، فلم يزل يقول ذلك حتى قام خالد[1] الحذاء يوماً من مجلسه، وقال: مهلاً يا ابن سيرين "كم تقول فى هذا الرجل؟! قد استتبته عن القدر عام حجه فتاب، ويتوب الله على من تاب" وقال عليه الصلاة والسلام: "لاتعيروا أحداً بما كان من الكفر، فإن الإسلام يهدم ما قبله من الشرك" ثم اعجب ما قال خالد، وهذا محمد بن واسع بن قتادة، وثابت البنانى[2]، ومالك بن دينار، وهشام

---

١. خالد بن مهران أبو المنازل: بفتح الميم وكسر الزاى، البصرى، الحذاء، قيل له ذلك لأنه كان يجلس عندهم، وكان يقول أخذ على هذا النحو، وهو ثقة مرسل، من الخامسة وقد أشار حماد بن زيد إلى حفظه تغير لما قدم من الشام، وعاب عليه بعضهم دخوله فى عمل السلطان.(تقريب التهذيب ١/١١٠)

٢. ثابت بن أسلم البنانى، أبو محمد البصرى، ثقة عابد، من الرابعة، مات سنة بضع وعشرين، وله ست وثمانون.(تقريب التهذيب ١/٥٩).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بن حسان[١]، وأيوب، وسعد بن عروبة وغيرهم يذكرون أنه لم يتب عن القدر، حتى مـــات، وهذا عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وغيلان بن جرير، ويونس بن بشير يدعون النـــاس إلى مذهب الحسن، هلم أهل البصرة جرياً على هذا المذهب.

وكان الحسن يعرض بابن سيرين، ويقول: يتوضأ بالقربـــة، ويغتســـل بالروايـــة صباحاً دلكاً، تعذيباً لنفسه وخلافاً لسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، يعبر الرؤيا كأنـــه مـــن آل يعقوب عليه السلام، فدع عنك أيها الرجل هذا، وهلم فيما قصدت إليه، وتعلم مـــا لا يســـعك جهله، إن الأمم قبلكم ما اجتمعت ولا تجتمع أبداً، والله تعالى يقول: "وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ"[٢]، ولولا ما جرت به المقادير،واختلفت الطبائع مـــا اختلفـــت، ولكن "قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا"[٣] ثم سكت، فقلت: ما تقول فيما اختلفوا فيه من القدر؟ قال: أهل البصرة والكوفة اختلفوا في القدر على ما علمـــت، وكبر عمرو عن الطوق، وهذه مسألة قد استصعبت على الناس، فأنى يطيقونها!! فالله تعالى لا يكلف العباد بما لا يطيقون ولا أراد منهم مالا يعلمون، ولا عاقبهم بما لم يعلموا، ولا ســـألهم عما لا يعلموا، ولا رضي لهم بالخوض فيما ليس لهم به علم والله أعلـــم بمـــا نحـــن فيـــه، والصواب الذي عنده، ونحن مجتهدون، وكل مجتهد مصيب، إلا أنه لم يكلفهم الاجتهاد فيمـــا ليس لهم به علم، والله ولي كل نجوى، وإليه رغبة كل راغب. وفقنا الله وإيـــاك لمـــا يحـــب ويرضى![٤]

هذه مقالة أبي حنيفة ليوسف بن خالد السمتي، وقصة التقائه به، وهي تكشف عما كان يجري من التعصب العلمي للبلاد، فأهل البصرة يتعصبون لعلمها وعلمائها، وكذلك أهل الكوفة متعصبون كذلك، ولعل ذلك يكشف بعض الأسباب في حدة الجدل بين أهل الحجـــاز وأهـــل العراق، فلم يكن السبب هذا اختلاف المنهج الفكري فقط، بل كان التعصب الإقليمي مضافاً إليه يزيده أواراً.

---

١. هشام بن حسان الأزدي القردوس، بالقاف وضم الدال، أبو عبدالله البصري، ثقة، من أثبت الناس في ابن سيرين، وفي روايته عن الحسن وعطاء مقال، لأنه قيل كان يرسل عنهما، من السادسة، مات سنة سبع أو ثمان وأربعين(تقريب التهذيب ١/٢٨٠).

٢. سورة هود: آية ١١٨.

٣. سورة الإسراء: آية ٨٤.

٤. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص٨٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهى تكشف أيضا عن الاختلاف بين العلماء، وحدة النقد بينهم أحياناً. فهذان اثنان من التابعين هما الحسن، وابن سيرين، ومكانتهما من علم هـذا الديـن مكانتـهما، قـد اختلفـت مناهجهما، وتناول كل واحد منهما طريقة الآخر بالنقد المر القوى، مستهجناً إياه.

وهى تكشف عن كثرة الاختلاف فى المسائل الشائكة مما يؤدى إلى أن يحرج كـل شخص مخالفه، ثم تكشف أخيراً عن عظم إدراك أبى حنيفة لروح عصره ومدارك علمائـه، وفهمه لنفوسهم، واتجاهات تفكيرهم، محتفظاً باستقلال فكره، محكماً عقله فى آرائهم، فاحصـاً لهم فحص الخبير المستمكن والمفكر المستدرك لا يهيم بعقله فى متاهات يضل فيها ولا يعمـل عقله فيما لا يكون فى طوقه، ولا يجهده فيما هو فوق مدارك الفكر الإنسانى، ويعـد مسـألة القدر من المسائل التى ضل مفتاحها.

هذه هى الاتجاهات الاجتماعية والفكرية فى عصر أبى حنيفة، فقد كانت مسألة الـرأى والحديث مثار جدل بين فقهاء العصر، وفيها كان اختلاف مناهجهم، والثانية فتوى الصحـابى والتابعى، كذلك هناك بعض الاتجاهات تحتاج إلى تخصيص بذكر مجمل لها، وهى المسـائل التى كانت تمس شخصيته الفكرية سواء فى ذلك ما يتعلق بمذهبه فى علم الكلام، وبعض مـا يتعلق باجتهاده الفقهى الذى أذاع فكره.

جـ- ثقافته العلمية:

كان لابد أن يتجه النعمان للعلم، ويأخذ منه بنصيب كبير، فقد نشأ بالكوفة وكانت ثانى المصرين العظيمين بالعراق فى ذلك العصر، وكان العراق قطراً يمـوج موجـاً بأصحـاب المقالات: الدينية والفلسفية والآراء والنحل المختلفة، كما كـان يزخـر بالعلمـاء وأصحـاب المعارف الإسلامية على اختلاف ضروبها.

وكان الإمام أبو حنيفة فتى طلعة متصلاً بالناس، راغباً فى المعرفة يسـعفه اسـتعداد طيب، وطبع موات، فما لبث أن أخذ من تلك الثقافات بقدر محمود، ومال إلى مجالس العلمـاء يأخذ عنهم وينظر معهم ويجادل أحياناً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

روى أبو محمد الحارثى بسنده إلى الإمام أبى حنيفة رحمه الله تعالى، قال: مررت يوماً على الشعبى وهو جالس، فدعانى وقال: إلام تختلف! فقلت: اختلف إلى فلان، قال: لم أعن إلى السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم، فقال: لا تفعل، وعليك بالنظر فى العلم، ومجالسة العلماء، فإنى أرى فيك يقظة وحركة. قال: فوقع فى قلبى من قوله، فتركت الاختلاف – أى إلى السوق – وأخذت فى العلم فنفعنى الله تعالى بقوله.(١)

وحين بلغ السادسة عشر من عمره خرج به أبوه لأداء فريضة الحج وزيارة النبى صلى الله عليه وسلم ومسجده، ذكر فى "مناقب الإمام أبى حنيفة"بسنده إلى الجعابى قال: حدثنى أبو يعلى عبدالله بن جعفر الرازى من كتاب فيه حديث أبى حنيفة، حدثنى أبى عن محمد بن سماعة الحافظ الثقة، عن أبى يوسف، قال: سمعت أبا حنيفة يقول: حججت مع أبى سنة ست وتسعين ولى ست عشرة سنة، فإذا أنا بشيخ قد اجتمع عليه الناس، فقلت لأبى: من هذا الشيخ؟ قال: هذا رجل قد صحب النبى صلى الله عليه وسلم، يقال له عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدى، فقلت لأبى: أى شئ عنده؟ قال: أحاديث سمعها من النبى صلى الله عليه وسلم، قلت: فدعنى إليه، فتقدم بين يدى فجعل يفرج على الناس حتى دنوت منه، فسمعت منه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:'' من تفقه فى دين الله كفاه همه، ورزقه من حيث لا يحتسب''.(٢)

وكان أول ما اتجه إليه من العلوم علم أصول الدين، ومناقشة أهل الإلحاد والضلال، ولقد دخل البصرة مرات عدة يناقش ثمة، ويجادل ويرد الشبهات عن الشريعة، ويدفع عنها ما يريد إلصاقه بها أهل الضلال، فناقش جهم بن صفوان حتى أسكته، وجادل الملاحدة حتى أقرهم على الشريعة، كما ناظر المعتزلة والخوارج فألزمهم الحجة، وجادل غلاة الشيعة فأقنعهم.

وهو مع قضائه زمناً يجادل ويناظر فى أصول الدين كما ذكرنا، كان ينهى أصحابه – بعد – والمقربين إليه عن الجدل، رأى رحمه الله تعالى ولده حماداً – الذى أصبح بعد قاضياً

---

١. الدمشقى: الحافظ محمد بن يوسف بن على بن يوسف الدمشقى الصالحى: عقود العقيان فى مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٧- ص١٠.

٢. ابن البزازى : محمد بن محمد بن شهاب – مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة، مطبعة مجلس دائرة المعارف – الهند – ١٣٢١هـ – ج١ ص٢٥،٢٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فاضلاً وعابداً ورعاً، يناظر فى الكلام، فنهاه، فقال حماد: رأيناك تناظر فيه وتنهانا عنه؟ فقال رحمه الله تعالى: كنا نناظر وكأن على رؤوسنا الطير، مخافة أن يزل صاحبنا، وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم، ومن أراد أن يزل صاحبه فقد أراد أن يكفر صاحبه، ومن أراد أن يكفرّ صاحبه فقد كفر قبل أن يكفرّ صاحبه.(١)

مضى رحمه الله تعالى فى هذه السبيل من علم الكلام وأصول الدين، ومجادلة الزائغين وأهل الضلال، حتى أصبح علماً يشار إليه بالبنان – وهو ما يزال فى العشرين من عمره، وقد اتخذ حلقة خاصة له فى مسجد الكوفة، يجلس إليه فيها طلاب هذا النوع من العلوم، ثم اتجه الإمام أبو حنيفة إلى الفقه، والفقه زبدة القرآن الكريم والسنة المطهرة، ففى الفقه تفسير لآيات الأحكام من القرآن الكريم ودلالتها، وفيه معرفة معانيها ومقاصدها، وفى الفقه كذلك شرح السنة المطهرة ودلالتها وفيه معرفة معانيها ومقاصدها، ذلك لأن الفقه هو الفهم فى الدين، وهل الفهم فيه إلا معرفة أصوله ومقاصده، وإحالاته ودلالاته وإشاراته. عن معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ''من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين''. رواه البخارى.

ولقد تكون الآية الكريمة عند القارئ، والحديث الشريف عند الحافظ، ولا يعرف كل تمام مقصد ومعنى ما عنده، حتى يأتى الفقيه فيبين معانى الآية ويشرح معانى الحديث.

كان أبو حنيفة رحمه الله تعالى فى زيارة شيخه الأعمش يوماً، فجاء إلى الأعمش رجل يسأل عن مسألة فى العلم، فقال لأبى حنيفة رحمهما الله: أجبه، فأجاب، فقال له: ومن أين لك هذا؟ قال: من حديث حدثتنيه هو كذا وكذا، فقال الأعمش: حسبك، ما حدثتك به فى سنة تحدث به فى ساعة أنتم الأطباء ونحن الصيادلة.

وكان سبب توجهه إلى الفقه ما روى زفر عنه رحمهما الله تعالى، قال: سمعت أبا حنيفة يقول: كنت أنظر فى الكلام حتى بلغت فيه مبلغاً يشار إلىّ فيه بالأصابع، وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبى سليمان، فجاءتنى امرأة يوماً فقالت: رجل له امرأة أراد أن يطلقها للسنة، كم يطلقها؟ فأمرتها أن تسأل حماداً ثم ترجع فتخبرنى، فسألت حماداً فقال: يطلقها وهى طاهرة من الحيض والجماع تطليقة، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين – بعد

---

١. المكى: المناقب – ج١/٢٠٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحيضة الأولى فهى ثلاث حيض- فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج، فرجعت فأخبرتنى فقلت: لا حاجة لى فى الكلام، وأخذت نعلى فجلست إلى حماد أسمع مسائله، فأحفظ قوله، ثم يعيدها من الغد فأحفظ ويخطئ أصحابه، فقال: لا يجلس فى صدر الحلقة بحذائى غير أبى حنيفه.[١]

وروى الموفق المكى بسنده إلى يحيى بن شيبان، قال: قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: كنت رجلاً أعطيت جدلاً فى الكلام. فمضى دهر فيه أتردد، وبه أخاصم، وعنه اناضل، وكان أصحاب الخصومات والجدل أكثرهم بالبصرة، فدخلت البصرة وفيها نازعت طبقات الخوارج من الإباضية[٢]. والصفرية[٣]، وطبقات الحشو .... وساق الحديث إلى أن قال: وكنت أعد الكلام أفضل العلوم، وكنت أقول: هذا الكلام من أصل الدين، فراجعت نفسى بعدما مضى لى فيه عمر وتدبرت، فقلت: إن المتقدمين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والتابعين وأتباعهم لم يكن يفوتهم شئ مما ندركه نحن، وكانوا عليه أقدر وبه أعرف وأعلم بحقائق الأمور، ثم لم ينتصبوا فيه منازعين ولا مجادلين ولم يخوضوا فيه، بل أمسكوا عن ذلك ونهوا عنه أشد النهى، ورأيت خوضهم فى الشرائع وأبواب الفقه وكلامهم فيه، عليه تجالسوا، وإليه وبه خصوا، كانوا يعلمون الناس ويدعونهم إلى العلم، ويرغبونهم فيه، وكانوا يطلقون الكلام والمنازعة فيه، ويتناظرون عليه، ويفتون فيما يستفتون، على ذلك مضى الصدر الأول من السابقين وتبعهم التابعون عليه، فلما ظهر لنا من أمرهم هذا الذى وصفنا تركنا المنازعة

---

١. الهيثمى: شهاب الدين بن حجر – الخيرات الحسان فى مناقب الإمام أبى حنيفة النعمان – مطبعة الخيرية – القاهرة – ١٣٠٤هـ – ص٢٥.

٢. الإباضية هم: أصحاب عبدالله بن إباض الذى خرج فى أيام مروان بن محمد، فوجه إليه عبدالله بن محمد بن عطيه، فقاتله بدباله، وقيل : أن عبدالله بن يحيى الإباضى كان رفيقاً له فى جميع أحواله وأقواله، قال: إن مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة، وموارثهم حلال، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرام وحرام قتلهم، وسبيهم فى السر غيلة، إلا بعد نصب القتال، وإقامة الحجة. (الملل والنحل ١/١٣٤)

٣. الصفرية هم: أتباع زياد بن الأصفر، وهم فى آرائهم أقل تطرفاً من الأزارقة وأشد من غيرهم، وقد خالفوا الأزارقة فى مرتكب الكبيرة، فالأزارقة اعتبروه مشركاً، لكن الصفرية لم يتفقوا على إشراكه بل منهم من يرى أن الذنوب التى فيها حد مقرر لا يتجاوز مرتكبها ما سماه الله من أنه زان او سارق أو قاذف، وما ليس فيه حد مرتكبه كافر، ومنهم من يقول أن مرتكب الذنب لا يعد كافراً حتى يحده الوالى.(تاريخ المذاهب ص٧٦).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمجادلة والخوض فى الكلام، واكتفينا بمعرفته، ورجعنا إلى ما كان عليه السلف، وأخذنا فيما كانوا فيه، وشرعنا فيما شرعوا فيه وجالسنا أهل المعرفة بذلك.

ويبدوا أن سؤال المرأة كان السبب القريب لتحوله رحمه الله تعالى إلى الفقه.[١]

د- شيوخه وتلاميذه:

عُرف أبو حنيفة فيما بعد بأنه ''إمام أهل الرأى'' لكثرة اجتهاده وعمله بالقياس فيما لا نص ثابت لديه فيه، ونعتقد أن هذه النزعة كانت أصيلة فيه، فقد رأيناه ينصرف، كما يقولون، عن الاشتغال بالنحو لما رآه من أن القياس لا يجرىّ فيه.

ولذلك نراه يلازم من بين شيوخ الفقهاء الذين أخذ عنهم حماد بن أبى سليمان الذى انتهت إليه فى عصره رياسة الفقه فى العراق، وقد تلقى هذا فقهه عن إبراهيم النخعى، وكلاهما من مشيخة فقهاء الرأى فى مقابل فقهاء الحديث والآثر.

إن الذى يتصفح ما كتبه تلاميذ أبى حنيفة المباشرون، يرى أن الواحد ينكر رأى الإمام فى المسائل التى يتناولها وأنه يذكر مع ذلك شيوخه الذين أخذ عنهم، وكثيراً جداً ما يكون هؤلاء: حماد[٢] بن أبى سليمان، ثم شيخه إبراهيم النخعى اللذين ذكرناهما آنفاً، واللذين يذكرهما محمد بن الحسن الشيبانى فى كتابه '' الآثار''ة مثلاً؟''[٣]

وليس معنى هذا وذاك، أنه لم يأخذ فى الفقه إلا عن حماد بخاصة، أو عن فقهاء أهل الرأى بعامة. بل إنه من الثابت تاريخياً بلا ريب، أنه قد اتصل كثيراً بفقهاء ذوى نزعات مختلفة وربما أفاد من غير قليل منهم فى تكوين آرائه وبناء مذهبه، فقد أخذ - مثلاً- عن عطاء بن أبى رباح[٤] فقيه مكة، وعكرمة مولى عبدالله بن عباس ووارث علمه، ونافع مولى

---

١. المكى: المناقب - ج١/٦٠.

٢. حماد: هو أبو اسماعيل حماد بن أبى سليمان - مولى ابراهيم بن أبى موسى الأشعرى "رضى الله عنه" تفقه بإبراهيم، ومات سنة تسع عشرة ، ومائة وقيل عشرين ومائة، قال عبدالملك بن إياس، قيل لإبراهيم من لنا بعدك، قال حماد: (طبقات الفقهاء ص٦٣).

٣. محمد يوسف موسى: أبو حنيفة والقيم الإنسانية فى مذهبه - مكتبه نهضة مصر بالفجالة - ص٤٣.

٤. عطاء بن أبى رباح أسلم أبو محمد المكى، مولى بنى جُمح، قال ابن سعد: انتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان أسود أعرج أفطس أشل أعرج، قطعت يده مع ابن الزبير ثم عمى. له ترجمة فى تذكرة الحفاظ ٩٨/١، حلية الأولياء ٣١٠/٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن عمر وحامل علمه، هذا فضلاً عن السابقين والذين تركوا أثراً كبيراً فى فقه الكوفة ومنهم علقمة النخعى الذى قال عنه ابن مسعود إنه ما قرأ شيئاً أو علمّه إلا قرأه علقمه أو علّمه، والأسود هو الأسود بن يزيد بن أخى علقمة[١] وتلميذ معاذ وابن مسعود: وأما عبدالله فهو عبدالله بن مسعود.

كما التقى بالمبرزين فى الفقه والعلم من أئمة الشيعة، ومن هؤلاء الإمام زيد[٢] بن على الذى قتل شهيداً فى عام مائة واثنتين وعشرين، والذى ينسب إليه كتاب"المجموع" فى الفقه، ومنهم أيضا الإمام جعفر[٣] الصادق الذى توفى قبل أبى حنيفة بعامين اثنين، وكان على جانب عظيم من الفقه والبصر به، حتى ليقول صاحبنا نفسه: والله ما رأيت: أفقه من جعفر الصادق، ومن أجل ذلك نرى الخطيب البغدادى يقول فى تاريخه محدثاً عن الربيع بن يونس، دخل أبو حنيفة يوماً على المنصور-(يريد أبا جعفر الخليفة العباسى)- وعنده عيسى بن موسى، فقال للمنصور: هذا عالم الدنيا اليوم فقال له: يا نعمان: عمن أخذت العلم؟ قال: عن أصحاب عمر عن عمر، وعن أصحاب على عن على، وعن أصحاب عبدالله عن عبدالله

---

١. ابن أخى علقمة: هو أبو عبدالرحمن الأسود بن يزيد بن قيس النخعى بن اخى علقمة رضى الله عنه" مات خمس وسبعين، قالت عائشة رضى الله عنها: ما مات رجل العراق أكرم على من الأسود، وقيل للشعبى أيهما أفضل علقمة أو الأسود؟ قال كان علقمة مع البطيء وهو يدرك السريع.(انظر طبقات الفقهاء ص٥٨).

٢. الإمام زيد بن على: نشأ الإمام زيد رضى الله عنه وعن آبائه الكرام الأبرار وسط حزن باكى فقد قتل بضع عشر من آل بيته فى يوم واحد، كان رضى الله عنه من السلالة الطاهرة النقية، فأبوه على هذا، وجده أبو الشهداء الحسين، وجده الأعلى فارس الإسلام على بن أبى طالب، باب مدينة العلم، وأقضى الصحابة، وأخواتى فى المؤاخاة التى عقدها صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة، لم يعرف ميلاد زيد على وجه اليقين، ولكن يظهر أنه ولد فى حدود عام ٨٠ للهجرة، لأن جل الروايات تذكر انه قتل شهيداً عام ١٢٢هـ وأجمعت الروايات على أنه كان يوم مقتله لا يتجاوز الثانية والأربعين- (تاريخ المذاهب ص٦٥٢).

٣. جعفر الصادق: " أحد الأئمة الإثنا عشر على مذهب الإمامية، وكان من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقة فى مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر، وكان تلميذه جابر بن حيان الصوفى الطرطوسى، قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة، تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهى خمسمائة رسالة، ودفن بالبقيع فى قبر فيه أبوه محمد الباقر، وجده زين العابدين، وعم جده الحسن بن على عليهم السلام، فالله دره من قبر ما أكرمه وأشرفه" - قيل انه ولد عام ٨٠ للهجرة، وقيل انه ولد عام ٨٣هـ، وقيل أنه ولد قبل التاريخين وأرجح الروايات أوسطها، وهى أنه ولد عام ٨٠هـ فهو ولد فى السنة التى ولد فيها عمه زيد بن على رضى الله عنهما(تاريخ المذاهب ص٦٩٤)، (تهذيب التهذيب ٢/٩٨)، (اللباب ١/٢٣٠)

-(يريد عبدالله بن عباس)- وما كان في وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه، قال: استوثقت لنفسك.

وفي رواية أخرى أنه أجاب عن سؤال المنصور: عمن أخذ الفقه؟ بقوله: عن حماد "ابن أبي سليمان" عن إبراهيم "النخعي" عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله ابن مسعود، وعبدالله بن عباس، وعندئذ قال له الخليفة: بخ . بخ ! استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة، الطيبين الطاهرين المباركين صلوات الله عليهم.[1]

ويذكر كتاب المناقب جميعاً أنه التقى ببعض الصحابة وبعضهم يذكر أنه روى عنهم أحاديث، وأنه ارتفع بذلك إلى رتبة التابعين، ويسبق بهذا الفضل الفقهاء الذين عاصروه كسفيان الثوري[2]، والأوزاعي ومالك وغيرهم من أقرانه.

ولم يختلف الرواة في أن أبا حنيفة التقى ببعض الصحابة الذين عمروا وعاشوا إلى نهاية المائة الأولى أو ما يقاربها، أو عاشوا شطرا من العقد التاسع منها، وذكروا أسماء كثيرين من الصحابة التقى بهم ورأهم، منهم أنس بن مالك الذي توفي ٩٣هـ، وعبد الله بن أبي أوفى المتوفى سنة ٨٧هـ، وسهل بن سعد وأبو الطفيل ولم يأخذ عن أحد منهم الفقه، هذا ما ذكره بعض العلماء عن تهذيب الأسماء للنووي في حق الإمام.[3]

ولقد اختلفوا في روايته عنهم: قال بعض العلماء إنه روى عنهم ومنهم الطحطاوي الذي قال: قد ألّف أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري المقرئ الشافعي جزءاً فيما

---

١. ابن البزازي: المناقب - ج٢/١٤.

٢. الثوري: هو أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مروان الثوري (رضي الله عنه)، ولد في خلافة سليمان بن عبدالملك سنة ست وتسعين، ومات سنة إحدى وستين ومائة، في خلافة المهدي، قال سفيان بن عيينه ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري، وقال أحمد بن حنبل دخل الأوزاعي وسفيان على مالك فلما خرجا قال أحدهما: أكثر علماً من صاحبه ولا يصلح للإمامة والآخر يصلح للإمامة، قلت لأبي عبدالله فمن ذا الذي على مالك، إنه أعلم الرجلين أهو سفيان: قال: نعم هو سفيان أوسعهما علماً، وقال عبدالله بن المبارك: لا نعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان، وقال ابن المديني: سألت يحيى بن سعيد فقلت أيما أحب إليك رأي مالك أو رأي سفيان، فقال: سفيان لا تشك في هذا، ثم قال يحيى: سفيان فوق مالك في كل شيء، وقال أبو شامه كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في زمانه رأس الناس وهو جامع، وكان بعده ابن عباس رضي الله عنهما وكان بعده الشعبي في زمانه وسفيان، وكان بعد الثوري في زمانه يحيى ابن آدم.(طبقات الفقهاء ص٦٥)، (اللباب ١/١٩٨).

٣. مسند الإمام : أبي حنيفة النعمان - ص١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رواه الإمام أبو حنيفة عن الصحابة، لكن أهل الخبرة من علماء الحديث ضعفوا سندها إليه، وإن كان لبعضها قوة من طرق أخرى.

بقي السؤال: أيعد الإمام أبو حنيفة تابعياً أم لا يعد؟

لقد اختلف العلماء في تعريف التابعي، فقال بعضهم إنه من لقي الصحابي وإن لم يصحبه، فمجرد الرؤية على ذلك الرأى تجعل الشخص تابعياً، وأبو حنيفة على هذا الاعتبار يكون تابعياً، وبعض العلماء لا يكتفي في تعريف التابعي لمجرد الرؤية للصحابي، بل لابد أن يكون قد صحبه، وتلقى عنه، وعلى ذلك لا يعد أبو حنيفة تابعياً، اللهم إلاّ إذا صدقنا ما يقال أنه روى عن بعض الصحابة الذين ذكرناهم.(١)

ومهما يكن الكلام في روايته عن الصحابة فالعلماء مجمعون على أنه التقى ببعض الصحابة والتابعين وروى عنهم فآخر من مات من الصحابة في الدنيا عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمر بن جحش الليثي أبو الطفيل، مات سنة عشر ومائة على الصحيح، قال مسلم وغيره فعلى هذا عمر الإمام وقت وفاته ثلاثون سنة، ومن المستبعد غاية البعد من أمثال الإمام أن لا يلقاه في هذا العمر من الشباب، ولا يرحل اليه لنيل النعمة العظمى من التابعية وسماع الأحاديث، بواسطة واحدة والصحابي كيف وقد قال في الدرر المختار وغيره أنه حج خمساً وخمسين حجة، فثبت أنه حج خمس عشرة حجة في أيام أبي الطفيل الصحابي الذي كان بمكة المعظمة، ومات بها سنة عشر ومائة لأن عمر الإمام سبعون من الثمانين إلى مائة وخمسين، فيكون بدء الحج من عمر خمس عشرة سنة، ويتم خمس عشرة حجة إلى الثلثين، فكيف يتصور أن لا يلقاه في هذه الحجج الكثيرة.(٢)

وقد أورد ابن سعد في الطبقات إنه من طبقة التابعين، ولم يثبت ذلك لأحد من أئمه الأمصار المعاصرين له كالأوزاعي بالشام، والحمادين بالبصرة وهما حماد بن زيد وابن سلمة البصريان، والثوري بالكوفه، ومالك بالمدينة ومسلم بن خالد الزنجي بمكة، والليث بن سعد بمصر.(٣)

---

١. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص٦١.

٢. مسند الإمام أبي حنيفة - ص١٠.

٣. الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي أبو الحارث المصري. أحد الأعلام، قال يعقوب بن شيبة: ثقة. مات سنة خمس وسبعين ومائة، له ترجمة في: حلية الأولياء ٣١٨/٧، والعبر ٢٦٦/١، تاريخ بغداد ١٤٣/٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفي شرح المشكوة لابن حجر المكي: أدرك الإمام الأعظم ثمانية من الصحابة فمنهم أنس وعبد الله بن أبي أوفى وسهل بن سعد وأبو الطفيل، وقال الكردري جماعة من المحدثين أنكروا علاقاته مع الصحابة وأصحابه أثبتوه بالأسانيد، وقد جمعوا مسنداته فبلغ خمسين حديثاً يرويه الإمام عن الصحابة الكرام وأنشد بعضهم كفى النعمان فخراً ما رواه من الأخبار عن غرر الصحابة، وإلى ما ذكرنا أشار الإمام بقوله ''ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة فعلى الرأس والعين وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال'' لأنه ممن زاحم التابعين في الفتوى، اللهم إلا إذا كان التابعي يزاحم في الفتوى الصحابي فإنه يقلد ذلك التابعي كما يقلد الصحابي، وهذا سبب صالح لتقديم مذهبه على سائر المذاهب.[1]

نستطيع أن نقول أن الإمام أبا حنيفة قد استقى علمه من عدة ينابيع، فقد كان كل شيخ من شيوخه له لون فكري معين، فأبرز شيوخه هو من لازمه، وهو حماد بن سليمان الأشعري بالولاء، لأنه كان مولى لإبراهيم بن أبي موسى الأشعري، وهو قد نشأ بالكوفه، وتلقى فقهه على إبراهيم النخعي وكان أعظم الناس برأيه وقد مات سنة ١٢٠ هـ، ولم يتلق فقه النخعي فقط، بل تلقى فقه الشعبي[2]، وهذان الاثنان قد أخذا عن شريح[3]، وعلقمة بن قيس، ومسروق

---

١. مسند الإمام أبي حنيفة النعمان – ص١٠.

٢. الشعبي: هو عامر بن شراحيل أبو عمر الكوفي من همدان(رضي الله عنه)، ولد لست سنين خلت من خلافة عثمان رضي الله عنه، ومات سنة أربع ومائة، وقيل سنة سبع ومائة وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وروى أن ابن عمر مر به وهو يحدث بالمغازي فقال: شهدت القوم وانه أعلم بها مني، وقال ابن سيرين لأبي بكر الهذلي. الزم الشعبي فلقد رأيته يستفتي وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكوفة، وقال أبو حصين، ما رأيت أعلم من الشعبي، قلت: ولا شريح، قال تريد أن اكذب، ما رأيت أعلم من الشعبي، وقال مكحول ما رأيت اعلم بسنة ماضية عن عامر الشعبي، وقال الزهري، العلماء أربعة، سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن بن أبي الحسن بالبصرة، ومكحول بالشام، وقال أشعث بن سوار: لعمي لنا بحسن البصري الشعبي قال: كان والله ما علمت كبير العلم عظيم الحلم قديم السلم من الإسلام بمكان. طبقات الفقهاء الشيرازي – ص٦١، العبر ١/١٢٧، اللباب ٢/٢١.

٣. شريح: هو أبو أمية شريح بن الحرث القاضي رضي الله عنه" قال المدايني مات سنة اثنتين وثمانين – قال الأشعث: مات وهو ابن مائة وعشرين سنة وروى أن عليا رضي الله عنه قال: اجمعوا الشعراء فاجتمعوا في رحبة المسجد، فقال إني أوشك أن أفارقكم، فجعل يسائلهم ما تقولون في كذا، ما تقولون في كذا، وبقي شريح يسائله، فلما فرغ قال: اذهب فأنت من أفضل الناس أو من أفضل العرب، وقيل أنه استقضاه عمر رضي الله عنه على القضاء بالكوفة وبقي في القضاء خمساً وسبعين سنة، ثم استعفى الحجاج ما عفاه. (انظر طبقات الفقهاء للشيرازي ص٥٨، تقريب التهذيب ١/١٦١).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن الأجدع، وأولئك تلقوا فقه الصحابيين عبد الله بن مسعود، وعلى بن أبى طالب، وقد أورثا أهل الكوفة بإقامتهما فيها فقهاً كثيراً.

هذا و قد بينا أن الإمام أبا حنيفة قد أخذ عن أئمة الشيعة ودارسهم وله مواقف محمودة فى نصرتهم، حوسب عليها كهلاً وشيخاً حتى مات رضى الله عنه شهيد الإخلاص للعترة النبوية والتمسك بالحق والزهادة.

وكما ذكرنا سابقا فقد التقى بزيد بن على، ومحمد الباقر وجعفر الصادق، فالإمام زيد بن على زين العابدين رضى الله عنه، كان عالماً غزير العلم فى شتى الفنون الإسلامية فهو عالم بالقراءات، وسائر علوم القرآن، وعالم بالفقه، وعالم فى العقائد والمقالات فيها، ويروى أن أبا حنيفة تتلمذ له سنتين، حتى لقد جاء فى ''الروض النضير'' أن أبا حنيفة قال: ''شاهدت زيد بن على، كما شاهدت أهله فما رأيت فى زمانه أفقه منه، ولا أعلم، ولا أسرع جواباً، ولا أبين قولاً، لقد كان منقطع القرين''[١]

ثم كان محمد الباقر بن زين العابدين أخو الإمام زيد رضى الله عنه، وقد توفى قبله وهو من أئمة الشيعة الإمامية، اتفق على إمامته، الاثنا عشرية والإسماعيليه، وهما أشهر فرق الإمامية، وقد لقب بالباقر، لأنه بقر العلم، ولقد كان، مع أنه من آل البيت، لا ينكر الخلفاء الثلاثة بسوء، يروى أنه ذكر بحضرته أبو بكر وعمر وعثمان من بعض أهل العراق بسوء، فغضب وقال مؤنباً: أأنتم من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم؟ قالوا: لا، قال أأنتم من الذين تبوءوا الدار والإيمان؟ قالوا: لا: قال: ولستم من الذين جاءوا من بعدهم يقولون **''رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ''**[٢] قوموا عنى، لا قرب الله داركم، تقرون بالإسلام ولستم من أهله.

هذا وقد التقى الإمام أبو حنيفة مع الإمام الباقر فى المدينه، وكان الإمام أبو حنيفة قد اشتهر بالرأى والجدل حول القياس، وهو ما زال ملازماً حلقة حماد شيخه، فلم يكن استمراره

---

١. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص٦٤.

٢. سورة الحشر: آية ١٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى حلقة حماد بمانعه من أن يشتهر، وينمى خبر علمه، لأن حماداً توفى سنه ١٢٠هـ، والباقر توفى سنة ١١٤، فلابد أن يكون هذا الالتقاء بين الإمامين وحماداً لا يزال حياً.

وكما كان لأبى حنيفه اتصال علمى بالباقر، كان له اتصال أيضاً بابنه جعفر الصادق، وقد كان فى سن أبى حنيفة رضى الله عنهما، فقد ولدا فى سنة واحدة ولكنه مات قبل أبى حنيفة، فقد توفى سنة ١٤٨هـ أى قبل أبى حنيفة بنحو سنتين.[١]

ولقد جاء فى المناقب للموفق المكى: أن أبا جعفر المنصور قال: ''يا أبا حنيفة إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد، فهيئ له من المسائل الشداد'' فهيأ له أربعين مسألة، وإن أبا حنيفة يقول عندما دخل على أبى جعفر وهو بالحيرة: '' أتيته فدخلت عليه، وجعفر بن محمد جالس على يمينه، فلما بصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لأبى جعفر، فسلمت عليه، وأومأ فجلست ثم التفت إليه، فقال: يا أبا عبدالله هذا أبو حنيفة؟ فقال نعم، ثم التفت إليه، فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبى عبد الله من مسائلك، فجعلت ألقى عليه، فيجيبنى، فيقول أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا، فربما تابعنا وربما تابعهم، وربما خالفنا، حتى أتيت على الأربعين مسألة. ثم قال أبو حنيفه: ''إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس''[٢]

هذه الرواية تنبئ عن أن أبا حنيفة أحس بمنزلة جعفر الصادق عند أول لقاء وأن جعفراً كان له رأى فى الفقه، ولقد عد العلماء جعفراً هذا من شيوخ أبى حنيفة، وإن كان فى سنه.

---

١. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص٦٦.

٢. محمد زاهد الكوثرى: الإمتاع بسيرة الإمامين الحسن بن زياد وصاحبه محمد بن شجاع- مطبعة الأنوار - القاهرة ١٣٦٨ه- ص١٠، ١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يكن اتصال أبي حنيفه العلمي مقصوراً على رجال الجماعة وأئمة آل البيت بل يقول كتاب المناقب أنه أخذ عن بعض ذوى الأهواء، وذكروا بعضهم أنه من شيوخه، فذكروا جابر بن يزيد الجعفي من شيوخه، وهو من غلاة الشيعة، الذين أخذوا بمبدأ رجعة[1] النبي

---

١. يعتبر مذهب أهل السنة أن الأموات لا رجعة لهم في الدنيا قبل يوم القيامة، وقالت الإمامية قاطبة وبعض الفرق الأخرى من الشيعة، أيضاً برجعة بعض الأموات، فإنهم يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم والوصي والسبطين وأعداءهم يعني الخلفاء الثلاثه ومعاوية ويزيد ومروان وابن زياد وأمثالهم- وكذا الأئمة الأخرين وقاتليهم يحيون بعد ظهور المهدى، ويعذب قبل حادثة الدجال كل من ظلم الأئمة ويقتص منهم، ثم يموتون، ثم يحيون يوم القيامة،

وهذه العقيدة مخالفة صريحاً للكتاب، فإن ''الرجعة'' قد أبطلت في آيات كثيرة منها قوله تعالى ''قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون'' ولا يخفى أن مناط التمسك ومحطه إنما هو قوله ''من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون'' فلا يمكن للشيعه أن يقولوا إن الرجعه تستحيل للعمل الصالح لا للقصاص وإقامة الحد والتعزيز لما وقع المنع من الترجعة آخر الآية مطلقاً، وقال الشريف المرتضى في ''المسائل الناصرية'': إن أبا بكر وعمر يصلبان على شجرة في زمن المهدى: قيل تلك الشجرة تكون رطبة قبل الصلب فتصير يابسة بعده. فهذا الأمر سيضل به جمع، وهم يقولون: إن هذين البريئين قد ظلما، ولذا صارت الشجرة الخضراء يابسة، وقيل تلك الشجرة يابسة قبل الصلب ثم تصير رطبة خضراء بعد الصلب، وبهذا السبب يهتدى خلق كثير، والعجب أن هؤلاء الكذابين مختلفون بينهم في هذا الكذب أيضاً، فقال جابر الجعفي الذى هو من قدماء هذه الفرقة: إن أمير المؤمنين يرجع إلى الدنيا ودابة الأرض المذكورة في القرآن عبارة عنه معاذ الله من سوء الأدب، والزيدية كافة منكرون للرجعة إنكاراً شديداً،وقد ذكر في كتبهم رد هذه العقيدة بروايات الأئمة وكفى الله المؤمنين القتال. وقد قال الله تعالى ''وهو الذى أحياكم'' أى أنشأكم من العدم القطرى ''ثم يميتكم'' عند إنقضاء آجالكم ''ثم يحيكم'' أى يوم القيامة للجزاء، وقال ''وكنتم أمواتاً فأحياكم'' في الدنيا ''ثم يميتكم'' بعد إنقراض آجالكم ''ثم اليه ترجعون''

والدليل العقلى الموافق لأصول الإمامية على بطلان هذه العقيدة أنهم لو عذبوا بسوء أعمالهم بعدما رجعوا في الحياة الدنيا ثم يعاد عليهم العذاب في الآخرة لزم الظلم الصريح. فلابد أن لا يكونوا في الآخرة معذبين، فحصل لهم تخفيف عظيم عن العذاب المستمر الدائم وراحة أبدية، وذلك مناف لغلظ الجناية وعظم الجرم، قال الله تعالى '' ولعذاب الآخرة أشد وأبقى''، والدليل الآخر على بطلانها أن الخلفاءالثلاثة لم يرتكبوا ما يوجب تعذيبهم إلا غصب الخلافة وبعض حقوق أهل البيت على زعم الشيعة، وذلك الغصب بعد تسليمه غايته أن يكون فسقاً كما عليه متأخروهم أو كفراً كما زعم متقدموهم، ولا شيئ من الكفر والفسق يوجب الرجعة في الدنيا بعد الموت قبل البعث، وإلا يلزمهم أن يعتقدوا رجعة الكفرة والفسقة من أهل الأديان كلهم أجمعين، ولا اختصاص لهذا الكفر والفسق بالرجعة، وإلا يلزمهم أن يقولوا بكونها أكبر من الشرك بالله تعالى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صلى الله عليه وسلم، وبرجعة على رضى الله عنه والأئمة، ولقد ذكرا بن البزازى فى مناقب أبى حنيفة أن بزبدا أبا هذا من اتباع عبد الله بن سبأ، لكن الأرجح إنه من الشيعة غير السبئية لأن السبئية: يقولون بأن عليا إله أو قريب من إله، وعلى كفرهم وما كان لأبى حنيفة أن يأخذ علم الإسلام عن كفار.

وقد جادل أبو حنيفة جابر الجعفى مع اعتقاده أنه منحرف فى فهمه قد استولى عليه هوى معين، ولدا كان يقول فيه " إنه أفسد نفسه بالهوى الذى أظهره، وليس عندى فى الكوفة فى بابه أكبر منه" ولم يبين أبو حنبفة أى باب من أبواب العلم كان فيه مستبحرا.

وقد كان يذاكره وينهى أصحابه عن مجالسته، وكأنه كان يخشى عليهم فتنة عقله وقوة تفكيره أن يؤخذوا بها فبنحرفوا معه فى أهوائه ونحله، وكان يصفه بالكذب، فقد جاء فى ميزان الاعتدال: قال أبو بحبى الحمانى : سمعت أبا حنيفة يقول " ما رأيت فيمن رأيت أفضل من عطاء ولا أكذب من جابر الجعفى"[1].

ونرى من هذا أنه كان يتلقى العلم من كل من كانت له قوة فى ناحية من نواحيه، يأخذ منه موضع نفعة، ويتجذب موضع ضرّه، يميز طيبه من خبيثه فيجنى طيبه، ويلفظ خبيثه، ويأخذ العلم من وعاء ولا يهمه حامل الوعاء، والانتقاء بهذا الشكل لا يستطيعه إلا أقوياء العقول، الذين علا أفق تفكيرهم، ولم تستهوهم فكرة معينة، تمنعهم من تعرف الخير فى غيرها وأبو حنيفة فى هذا كان وحيد عصره.

تلامذته:

أكرم الله تعالى الإمام رحمة الله تعالى بتلاميذه عظام كانوا فى العلوم جبالا، يقرر معهم المسائل، ويقعد القواعد، ويتجذب بهم الخطأ لو يوشك أن يقه فيه ، ذكر الخطيب فى تاريخه بسنده إلى أبى كرامة قال : كنا عند وكيع بن الجراح ــ شيخ الإمام الشافعى وأحد

والكفر به. نعوذ بالله من ذلك، ومن تكذيب الأنبياء وقتلهم بغبر حق وإيذائهم ونحوها معاذ الله من ذلك، ولو كان المقصود من تعذيبهم فى الدنيا وإيلامهم وإيذائهم يكون ذلك حاصلا لهم فى عالم القبر أيضا فالإحياء عبث، والعبث قبيح، يجب تنزيه الله تعالى عنه، من هذا يتبين للعارف المنصف أن هذه العقيدة الخبيثة باطلة على أصولهم أيضا والقول بها ضلالة: " انظر مختصر التحفة الإثنى عشرية ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ".

١.محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص ٦٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شيوخ البخارى بالواسطة رحمهم الله تعالى ــ فقال رجل: أخطأ أبو حنيفة، فقال وكيع: وكيف يقدر أبو حنيفه أن يخطئ ومعه مثل أبى يوسف[١] ومحمد بن الحسن وزفر فى قياسهم واجتهادهم ومثل يحيى بن أبى زائدة وحفص بن غياث وحبان وقندل ابنى على فى حفظهم للحديث ومعرفتهم، ومثل القاسم بن معن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود فى معرفته بالنحو واللغة، وداود الطائى والفضيل بن عياض فى زهدهما وورعهما وعبد الله بن المبارك فى معرفته بالتفسير والأحاديث والتواريخ، فمن كان أصحابه وجلساؤه هؤلاء كيف يخطئ وهو بينهم؟ وكل منهم يثنى عليه، لأنه إن أخطأ ردوه إلى الصواب.[٢]

وقال الموفق المكى: كان لأبى حنيفة رحمه الله تعالى تلامذة كثيرون، منهم من كان يرحل اليه ويستمع أمداً ثم يعود إلى بلده بعد أن يأخذ طريقه ومنهاجه، ومنهم من لازمه، وقد قال ــ أى الإمام رحمه الله تعالى: هؤلاء ستة وثلاثون رجلاً منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء، وستة يصلحون للفتوى، واثنان - أبو يوسف وزفر - لتأديب القضاة وأرباب الفتوى.[٣]

١- أبو يوسف:

يعتبر أبو يوسف ممن طالت ملازمتهم للإمام أبى حنيفة، فقد نشأ فقيراً تضطره الحاجة لأنه يعمل لبأكل، وتدفعه الرغبة فى العلم لأن يستمع إلى العلماء حتى إذا لمح أبو حنيفة فيه ذلك أمده بالمال، فانصرف لطلب العلم، وكان قد جلس إلى ابن أبى ليلى[٤] قبل أن يجلس إلى أبى حنيفة ثم انقطع إليه، وكان يقول ''كنت أطلب الحديث والفقه وأنا رث الحال، فجاءنى أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه فقال لى: يابنى لا تمدد رجلك مع أبى

---

١. أبو يوسف القاضى هو: الإمام العلامة فقيه العراقيين يعقوب بن إبراهيم الأنصارى الكوفى، صاحب أبى حنيفة، قال أحمد: كان ضعيفاً فى الحديث، وقال الفلاس: صدوق كثير الغلط، مات سنة اثنين وثمانين ومائة، أو ثلاثة وثمانين ومائة له ترجمة فى (طبقات الحفاظ للسيوطى ص١٢٧،١٣٨) وتهذيب الأسماء واللغات ص٢٧٣-طبقات الفقهاء ص١١٣.

٢. مسند الإمام أبى حنيفة - ص٦.

٣. الموفق المكى: المناقب - ج٢/١٣١.

٤. ابن أبى ليلى: هو عبدالرحمن بن أبى ليلى يسار، ويقال: بلال، ويقال: داوود بن بلال، الأنصارى الأوسى أبو عيسى الكوفى، ولد لسنتين بقيت من خلافة عمر. قال عبدالملك بن عمير: أدركت ابن أبى ليلى فى حلقة فيها نفر من الصحابة منهم البراء بن عازب يستمعون لحديثه وينصتون له. مات فى وقعة الجماجم. له ترجمة فى، تهذيب التهذيب ٦/٢٦٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج إلى المعاش. فقصرت عنه كثيراً فـــى الطلـب وآثرت طاعة أبى، فتفقدنى أبو حنيفة وسأل عنى، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يـــوم أتيته بعد تأخرى، قال: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدى: فجلســـت. ولمـــا انصرف الناس دفع إلى صرة قال: استمتع بها فإذا فيها مائه درهم. وقال لى: الزم الحلقة فإذا فرغت هذه فأعلمنى: فلزمت الحلقه فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخـــرى، ثـم كـان يتعهدنى وما أعلمته بخلة قط، ولا أخبرته بنفاد شئ، وكأنـــه يخـبر بـها حتـى اسـتغنيت وتمولت.[1]

فأبو حنيفة كان يدرك بعقله ويلتزم بفعله، حديث رسول الله: ''لا حسد إلا فى اثنتيـن، رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمـــة فـهو يقضـى بـها ويعلمها'' وبهذين الحكمة والمال راح يتحدى الحسد، فيمنح المال فى سبيل الخير، ويقضـــى بالحكمة ويعلمها، منحاً ليس له أول ولا آخر، وتعليماً يكاد تضيق عنه حدود هـــذا الوجـود، وقديماً قال الحكيم العربى ''خير الخير أوحاه''. ثم هو يعطى فىغيبة الناس فلا يشهد علـى العطاء إلا نفس صاحبه، فكان بذلك يصنع الصنيع دائماً فى استخفاء وعلى استحياء، فإذا شكر أنكر الشكر ونقله إلى شيخه حماد.

وأبو حنيفة يدرك ميزة الاتصال الشخصى بين الأستاذ ورواده. قـال لأبـى يوسـف ينصحه: ''وأقبل على متفقهتك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابناً وولداً لـتزيدهم رغبـة فـى العلم'' وتلك النصيحة هى الصنيع الذى طفق يصنعه طوال حياته، لا ينفك يسأل عن المريض من تلاميذه حتى يبرأ، وعن الغائب حتى يرجع، وعن غير المريض وغير الغائب، لم يعـرف عنه أنه أختص ولده حماداً بعطف، كما اختص تلاميذه.

وقد بلغت مدرسه أبى حنيفة أوجها فإذا بالمدرسة تخرج الحكام الكبار باسم القضـــاه، وكأن العناية الإلهية قد كشفت لأبى حنيفة القناع عن وجه المستقبل حين استشار أبا يوسف فى قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول فقال له أبو حنيفة: ''ولكأنى بـــك قاضيـاً''

---

١. عبدالحليم الجندى: أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام - الطبعة الثالثة - دار المعارف - القاهرة - ص٩٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهي النبوءة التي قال عنها الرشيد فيما بعد: ''لعمري إن العلم يرفع ''دنيا ودينـاً'' وترحـم على أبي حنيفة ثم قال: ''كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه.[١]

كان أبو يوسف في السابعة والثلاثين عندما توفي أستاذه، ويظهر أنه بعد وفـاة أبـي حنيفة أو أثناء حياته كان يتصل بالمحدثين ويتلقى عليهم، فقد قال ابن جرير[٢] الطبري ''كـان أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي فقيهاً عالماً حافظاً، ذكر أنه كان يعرف بحفظ الحديـث وأنه كان يحضر المحدث، فيحفظ خمسين أو ستين حديثاً ثم يقوم فيحملها على الناس، وكـان كثير الحديث.

ولقد ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء: للمهدي، ثم الهادي، ثم الرشيد، وكـان الرشـيد يكرمه ويجله، وكان عنده حظياً مكيناً، وكان توليه القضاء من أسباب تحامي بعض المحدثيـن لحديثه، فوق أنه من الفقهاء الذين غلب عليهم الرأي، ولذا قال فيه الطبري ''تحـامى حديـث قوم من أهل الحديث من اجل غلبة الرأي عليه، وتعريفه الفروع في المسائل والأحكـام، مـع صحبة السلطان، وتقلده القضاء''.

هذا وقد أتيح لفقه أبي حنيفة على يد أبي يوسف مـا يتـاح للمذاهـب السياسـية أو الاجتماعية أو العلمية من النجاح إذ يهيئ لها القدر رجالاً في دست الأحكام، فقد جعل من فقـه أستاذه فقهاً رسمياً بالقضاء وبالإفتاء وبالتدوين وخاصة بتعيين أتباعه في كراسي القضاء حتـى صار الناس في بغداد يسمون مذهب أبي حنيفة بمذهب السلطان فظهر المذهب فيها بعد وفـاة أبي حنيفة على المذاهب كافة، وعظمت تلك القوة، وكما قال ابن حزم: مذهبان انتشـرا فـي بداية أمرهما بالرياسة والسلطان الحنفي بالعراق والمالكي بالأندلس[٣].

وقد صقل المذهب الحنفي صقلاً عملياً، فإن القضاء فيه مواجهة لمشاكل الناس وتنبيـه لطرق معالجتها وطلب لأدواء الناس وأمراضهم، وبه قد اطلع على الشـئون العامـة فـأصبح قياسه واستحسانه مشتقاً من الحياة العملية، لا من الفروض النظرية فقط.

---

١. عبدالحليم الجندي: أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح - ص١٠٤.

٢. ابن جرير الطبري هو: محمد بن جرير بن يزيد الأملي الطبري أبو جعفر الإمام صـاحب التصـانيف المشهورة - قال الخطيب: أحد أئمة العلماء- مات سنة عشر وثلاثمائة- له ترجمة في :,تـاريخ بغـداد ١٦٢/٢، تهذيب الأسماء واللغات ٧٨/١، شذرات الذهب ٢٦٠/٢، طبقات المفسرين للداودي٣٠،٣١.

٣. عبدالحليم الجندي: أبو حنيفة - بطل الحرية والتسامح في الإسلام- ص١٠٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولعل أبا يوسف أول فقهاء الرأى الذين عملوا على دعم آرائهم بالحديث، وبذلك جمع بين طريقة أهل الرأى وأهل الحديث، إذ تلقى عن المحدثين، وحفظ عنهم، حتى عد أحفظ أصحاب أبى حنيفة للحديث.

وفى سنة ١٨٣هـ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول: ''اللهم إنك تعلم أننى لم أجر فى حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً، وقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم. كلما أشكل علىّ جعلت أبا حنيفة بينى وبينك، وكان عندى والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن طريق الحق وهو يعلمنه'' ، وعرف الناس وصيته، مائة ألف درهم لأهل مكة، ومائة ألف لأهل المدينة ومائة ألف لأهل بغداد، ومائة ألف للبلد الذى جعل صبى القصار أستاذاً للرشيد يهب مئات الآلاف: نعنى به الكوفة.

٢- *محمد بن الحسن الشيبانى:*

هو الإمام المجتهد. أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى نسباً على ما ذكره الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمى البغدادى الشافعى فى كتاب التحصيل فى أصول الفقه، وأقره الجلال السيوطى فى ''جزيل المواهب فى اختلاف المذاهب'' وغالب أهل العلم على أنه شيبانى ولاء لا نسباً، وقال محمد بن سعد كاتب الواقدى فى الطبقات الكبرى: محمد بن الحسن، أصله من الجزيرة وكان أبوه فى جند الشام فقدم واسط فولد محمد بها سنة ١٣٢ هـ، ومات سنة ١٨٩ هـ.[١]

أتم دراسته لفقه العراق على أبى يوسف، فهو لم يتلق عن أبى حنيفة أمداً طويلاً، كذلك أخذ عن الثورى والأوزاعى ورحل الى مالك وتلقى عنه فقه الحديث والرواية بعد أن تلقى عن العراقيين فقه الرأى والدراية، وقد ولى القضاء للرشيد، وإن لم يكن قاضى القضاة، كشيخه أبى يوسف، وكانت له دراية واسعة بالغة فى الأدب فاجتمع له بذلك ثقافة لسانية ودربة بيانية، وكان له منظر جليل، حتى لقد قال فيه الشافعى ''كان محمد بن الحسن يملأ العين والقلب'' وقال فيه أيضاً: ''كان أفصح الناس، كان إذا تكلم خيل إلى سامعه أن القرآن نزل بلغته''[٢]

---

١. محمد زاهد الكوثرى: بلوغ الأمانى فى سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيبانى - مكتبة دار الهداية - القاهرة - ص٤.

٢. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص١٨٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان عمل أبى يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لازماً للفقه عند النشأة الأولى ليأتلف العلم مع العصر والواقع، وأما عمل محمد كان لازماً ليوجه الفقه فى طريق الخلود فتراه العصور جميعاً.

كانت ولايته على القضاء دراسة أخرى أفادته علماً وتجربة وقربت فقهه من الناحية العملية وجعلته ينحو نحوالعمل، ولا يقتصر على التصور والنظر المجرد.

وكان فى محمد اتجاه إلى التدوين، فهو الذى يعد بحق ناقل فقه العراقيين إلى الأخلاف، ولم يكن نقله مقصوراً على العراقيين، فقد روى الموطأ عن مالك ودونه، وتعد روايته له من أجود الروايات إن لم يكن أجودها مطلقاً لأنه سمعه من لفظه بترو فى مدة ثلاث سنوات، ولأنه يذكر بعد أحاديث الأبواب ما إذا كانت تلك الأحاديث مما أخذ به فقهاء العراق أو خالفوه مع سرد الأحاديث التى بها خالفوا تلك الأحاديث، وهذه ميزة عظيمة يمتاز بها موطأ محمد عن باقى الموطآت.(١)

روى أن محمداً لما رحل إلى المدينه فى حكم المهدى''سنه ١٥٨ هـ إلى ١٦٩هـ'' ليستقى العلم من مالك بن أنس وروى عنه ''الموطأ'' اختلط بالكسائى وكان ذلك فى عهد الرشيد فعلمه الكسائى اللغة وعلم الكسائى الفقه.

قالوا: جلس الكسائى يوماً يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضى القضاة فقال للرشيد هذا الكوفى قد استفرغك وغلب عليك: فقال الرشيد: يا أبا يوسف إنه ليأتينى بأشياء يشتمل عليها قلبى: لكن جواب الرشيد عن الكسائى لا يشفيه، ولا يكفيه، فأقبل على أبى يوسف يقول: يا أبا يوسف هل لك فى مسألة؟ فقال: ''نحو أم فقه''؟ فقال: بل فقه: فضحك الرشيد حتى فحص برجله وقال للكسائى: تلقى على أبى يوسف فقهاً!! قال الكسائى: نعم: يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال لامرأته أنت طالق أن فتحت الدار''وفتح الهمزه فى أن'' قال أبو يوسف إذا دخلت طلقت:قال أخطأت يا أبا يوسف فضحك الرشيد وتساءل كيف الصواب؟ قال الكسائى: إن قال أن وجب الفعل ووقع الطلاق وإن قال أن فلم يجب ولم يقع الطلاق.(٢)

قالوا: فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتى الكسائى إلى الرشيد. ولما حشر الشافعى إلى الرشيد لمحاكمته بتهمه التشيع والانحياز للعلويين هناك ضد العباسية وحمل إلى العراق

---

١. محمد زاهد الكوثرى: بلوغ الأمانى فى سيرة الأمام محمد بن الحسن الشيبانى - ص١٠،١١

٢. عبدالحليم الجندى - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام- ص١٠٩،١١٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة أربع وثمانين ومائة ولما برئت ساحته من التهمة ألهم التفقه عند محمد بن الحسن حتى اتصل به ولازمه ملازمة كلية واستنسخ مصنفاته بصرف نحو ستين ديناراً، وانصرف إلى التفقه عنده إنصرافاً تاماً إلى أن سمع منه حمل بختي من الكتب ليس عليها إلا سماعه، وأخذ يعتلي شأنه وأصبحت هذه المحنة منحه كبرى في حقه لكونها مبدأ اعتلاء قدره.(١)

ومما كتبه إليه في أول قدومه يستبطئ إعارة كتاب كان طلبه من محمد بن الحسن:

قل للذى لم ترعيـ ـن من رآه مثله
حتى كأن مـن را ه قد رأى من قبله
العلـم ينهـى أهله أن يمنعـوه أهله
لعلـه يبذلـه لأهلـه لعلـه

فوجه به إليه في الحال هدية كما نقله ابن الجوزى بهذا اللفظ في المنتظم عن الطحاوى، وروى بن عبد البر هذه الحكاية مع أبيات الشافعى هذه بسنده إليه في جامع بيان العلم، وقد ذكر أبو إسحق الشيرازى أيضاً هذه القصة مع تلك الأبيات في طبقات الفقهاء من غير سند، ومن المعلوم أنّ الشافعى رأى مالكا ووكيع ابن الجراح وابن عيينة، وقد اعترف في تلك الأبيات أنه لم ير مثل محمد بن الحسن وعده بمثل علم أبي حنيفة الذى لم يدركه الشافعى ولم يكن من الشعراء الذين يتزلفون بكل وسيلة، فمثل هذا الكلام لن يصدر عن مثله إلا وقلبه يواطئ لسانه.(٢)

وقد اجتمع لمحمد بن الحسن مال لم يجتمع لغيره من أصحاب أبي حنيفة غير شيخه أبي يوسف فهو قد تلقى فقه العراق كاملاً، وتلقى فقه الحجاز كاملاً عن شيخ المدينة مالك، وفقه الشام عن شيخ الشام الأوزاعى، وكانت له قدرة ومهارة في التفريع والحساب، وقد أخرج الخطيب بسنده أن الشافعى قال "ليس أحد أمن علي في الفقه من محمد بن الحسن"(٣)

---

١. محمد زاهد الكوثرى: بلوغ الأمانى في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيبانى - ص٢٠،٢١.

٢. المرجع السابق ص٢١.

٣. محمد زاهد الكوثرى: إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق، طبعة اولى - مطبعة الأنوار ١٣٦٠هـ - ص١٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قرأ الشافعى كتب محمد، وتعلم منها فقه أبى حنيفة وفقه الأقدمين، فها هو ذا محمد تلميذ أبى حنيفة ينهل من مالك وينهل منه الشافعى الذى علم ابن حنبل، فتتلاقى عنده المذاهب الأربعة، ويروى علومه فيرتوى منها الأئمة والمتفقهة والناس جمعياً.

وروى الملك عيسى بن الملك العادل الأيوبى أن عالماً يهودياً كان بالبصرة فطلب كتاب الجامع الكبير لمحمد، فلما وقف عليه قال: من بحث عن دينه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وإنما نسبها لنبى أشهد أنه على حق فأسلم.

قال الملك: إن هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صنعه، ومسائله معروفة، فإن من أراد أن يقرأه ويفهمه يحتاج أن يكون عالماً بستة علوم: أولها الكتاب العزيز، والآثار والفقه والنحو واللغة والحساب، ومن لم يكن مجيداً لهذه العلوم لم يعرفه إلا تقليداً.(١)

أقبل الرشيد يوماً على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا إلا محمد ومضى الرشيد لطيته ثم جاء الآذن يقول: محمد بن الحسن، فوجبت القلوب فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم عليهم فقال: ''كرهت أن أخرج عن الطبقه التى جعلتنى فيها، إنك أهلتنى للعلم. فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التى هى خارجة منه، وإن ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال: ''من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار'' وإنه إنما أراد بذلك العلماء. قال الرشيد صدقت يا محمد.(٢)

اعتقد محمد أن العالم لا يقف للخليفة وبالها من عقيدة ! لكن الأسمى من العقيدة هو العمل بها ولاسيما فى حضرة الرشيد وضد الرشيد وعلى أعين الناس، ومن حقه أن يقف الناس له ولو كانوا هم العلماء، لكن رضى الرشيد بموقف محمد كعالم، وبعدم وقوفه كفرد من رعاياه، يعدل تماماً موقف محمد من الرشيد، كلاهما كرم العلم وكلاهما يستحق التكريم.

وفى سنه ١٨٩ هـ مات محمد بالرى وهو فى صحبة الرشيد ومات معه صديقه الكسائى فى نفس الرحلة. ولما دفنا قال الرشيد: ''دفنت اليوم اللغة والفقه''.

٣- زفر بن هذيل:

وهو أقدم صحبة لأبى حنيفة من صاحبيه أبى يوسف ومحمد، فقد توفى عن ثمان وأربعين سنة عام ١٥٨ هـ، وكان أبوه عربياً، وأمه فارسية، فكانت له خصائص العنصرين، وكان قوى الحجة أخذ عن أبى حنيفة فقه الرأى، حتى غلب عليه على ما سواه، وكان أحد

---

١. عبدالحليم الجندى: أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام - ص١١٠.

٢. المرجع السابق - ص١١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أصحاب أبى حنيفة قياساً، ولقد جاء فى تاريخ بغداد فى الموازنة بين الأربعة أنه روى المزنى: جاء رجل فسأله عن أهل العراق، قال: ما تقول فى أبى حنيفة؟ قال: سيدهم، قال: فأبو يوسف؟ قال أتبعهم للحديث، قال: فمحمد بن الحسن؟ قال: أكثرهم تفريعاً، قال: فزفر؟ قال أحدهم قياساً.

شك رجل فى طلاق زوجته فسأل شريكاً القاضى فقال: طلقها ثم راجعها. وسأل الثورى فقال: إن كنت قد طلقتها فقد راجعتها، ثم جاء إلى زفر فقال: هى امرأتك حتى تتيقن من طلاقها.

ذلك بأن من الأصول التى وضعها أستاذه: أن الشك لا يزيل اليقين كمن توضأ ثم شك فى الحدث فهو على وضوئه.

وعرض الرجل على أبى حنيفة هذه الأقوال فقال: أما الثورى فقد أتاك بالورع، وأما زفر فأتاك بعين الفقه، وأما شريك فهو كرجل. قلت:لا أدرى أصاب ثوبى بول أم لا. فقال: بل على ثوبك فاغسله فلم يغفر شريك ذلك لأبى حنيفة حتى بعد أن مات.

وزفر لم يؤثر عنه كتب، ولم تعرف له رواية لمذهب شيخه، ويظهر أن السبب فى ذلك قصر حياته بعده فقد توفى بعده بنحو ثمانى سنوات، بينما الصاحبان عاش كل منهما بعده أكثرمن ثلاثين عاماً، فتوافر لهم زمن الكتابة والتدوين والمراجعة والدرس.

ولكن يظهر أنه عمل على نشر آراء أبى حنيفة بلسانه، وإن لم يدونها بقلمه، ويظهر أنه تولى قضاء البصرة فى حياة أبى حنيفة، فقد جاء فى الإنتقاء لابن عبد البر أنه ولى قضاء البصرة، فقال له أبو حنيفة، قد علمت ما بيننا وبين أهل البصرة من العداوة والحسد والمنافسة، ما أظنك تسلم منهم، فلما قدم البصرة قاضياً اجتمع اليه أهل العلم، وجعلوا يناظرونه فى الفقه يوماً بعد يوم، فكان إذا رأى منهم قبولاً واستحساناً لما يجئ به قال لهم: هذا قول أبى حنيفة، فكانوا يقولون: أو يحسن هذا أبو حنيفة؟ فيقول لهم: نعم وأكثر من هذا، فلم يزل بهم إذا رأى منهم قبولا لما يحتج به عليهم، ورضا به وتسليماً له – قال: هذا قول أبى حنيفة، فيعجبون من ذلك، فلم تزل حاله معهم على هذا، حتى رجع كثير منهم من بغضه إلى محبته وإلى القول الحسن فيه، بعد ما كان عليه من القول السئ.[1]

كان زفر أيضا يغربل الأحاديث غربلة، ويأتى بالدليل من غير حشو فإذا ناظر أبا يوسف فكأنه يأخذ بحلقومه، كان يناظره مرة وهو مستند إلى أسطوانة المسجد منتصباً وكان

---

١. محمد أبو زهرة : أبو حنيفة حياته وعصره – ص١٩٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لايتحرك بل يقول: هذه أبواب كثيرة اركض فـــى أيـــها شئت، وانتهى الأمر بأبى يوسف إلى أن جلس بين يديه وقد خلف زفر أبا حنيفة فى حلقته ثـم من بعده أبو يوسف.

٤- الحسن بن زياد:

الحسن بن زياد اللؤلؤى الكوفى، من فقهاء المذهب الحنفى، يعد مـــن رواة آراء أبـــى حنيفة، توفى سنة ٢٠٤ هـــ ، تتلمذ على أبى حنيفة وكان من أصحابه، وقد اشـــتهر بروايـــة الحديث، حتى كان يقول: كتبت عن ابن جريج اثنى عشرألف حديث كلها يحتاج إليـــه، كمـــا اشتهر برواية آراء أبى حنيفة، ولكن بعضاً من المحدثين يرفضون روايته.

ومروياته من الحديث عن أبى حنيفة مدونة فى مسنده المروى عن المسندين فى عـداد المسانيد السبعة عشرالمروية عن أبى حنيفة ولا سيما فى الفهرست الأوسط لابـــن طولـــون، وعقود الجمان للحافظ محمد يوسف الصالحى وثبت الشيخ أيوب الخلوتى وحصـــر الشـــارد لمحمد عابد السندى وغيرهما، ومروياته عن ابن جريج فقط نحو اثنى عشر ألف حديث، وهذا العدد لا يستكثر على مثله، وقد أقر أهل الحديث لأحد تلاميذه بأنه روى خمسين ألف حديـــث وهو إسحق بن بهلول التنوخى، كما شهد أهل العلم أن كتب تلميذه الآخر محمد بـــن شـــجاع الثلجى تحتوى على ثلاثة وسبعين ألف حديث، وترى النقلة لا يستكثرون تلك الأعداد لضخمة على تلامذته، وأناس آخرين دون طبقة الحسن بن زياد، وحين أتى دور التحدث عن الحســـن بن زياد الذى أفنى عمره فى علوم الرواية والدراية يستكثرون عليه أن يكون كتب عن ابـــن جريج نحو اثنى عشر ألف حديث.[1]

وقد ذكر الخطيب فى ترجمة أبى يعقوب إسحاق بن البهلول الحافظ: إنه كـــان فقيـــها حمل الفقه عن الحسن بن زياد، وعن الهيثم بن موسى صاحب أبى يوسف القاضي.

وقد أثنى على فقهه كثيرون، حتى قال يحيى بن آدم: '' ما رأيت أفقه من الحسن بـــن زياد، وقد تولى قضاء الكوفه سنة ١٩٤ هـــ، و لكن روى أنه كان لا يحســـن القضـــاء كمـــا يحسن الفقه، ولذلك استعفى و استرح منه''.

٥- عبد الله بن المبارك

---

١. محمد زاهد الكوثرى - الإمتاع بسيرة الإمامين - ص١٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان إماماً في الفقه وبطلاً في المعارك، كانت أمه خوارزمية، وأبوه تركيا،وكان من أكثر التلاميذ رواية للأستاذ، ولما مات أمر الرشيد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين.

٦- *داود الطائي:*

كان أرفع الناس صوتاً في الحلقة، ينقطع إلى العبادة ويخرج من الدنيا في حياته ا.. أرسلت إليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم يستعين بها على الدهر فأعادها لمصدرها، وردها المرسل مع بدرة تماثلها وغلامين قال لهما: إن قبل البدرتين فأنتما حران، فذهبا إليه قالا: إن في قبولك عتق رقابنا. قال: إني أخاف أن يكون في قبولها زهق رقبتي في النار. رداها إليه وقولا له يردها علي من أخذها منه أولى من أن يعطيني أنا.

هؤلاء هم أصحاب أبي حنيفة، وتلاميذه، جاءوا إلى حلقته مغمورين ثم ليصيروا من بعده قضاة، وقضاة للقضاة، بل عمداً للفقه الإسلامي، ملأ أفئدتهم يقين الرسالة التي نقلها اليهم الأستاذ العظيم فأضحى ما حملوه منها عنصراً أساسياً في نهضة الدولة وصلاح الدنيا بما فيه من طابع عملي وعمق فكري.

هـ- مؤلفاته:

لم يكن عصر الإمام رحمه الله تعالى عصر تأليف وتدوين بالمعنى الذي عرفناه فيما بعد، وهو أن يخلوا العالم إلى نفسه فيكتب أو يملي الأشياء الكثيرة، لم يكن الإمام ذلك العالم الذي فرغ نفسه للتأليف والإملاء، فقد كان التدريس قد شغله عن التأليف، لذا لم تكن للإمام رحمه الله تعالى تأليف كثيرة تتناسب مع مكانته العلمية العظيمة:

أ- لقد ثبت أنه رحمه الله تعالى ألف في علم الكلام الفقه الأكبر، والفقه الأوسط، وكتاب العالم والمتعلم، وكتاب الرسالة إلى عثمان البتي فقيه البصرة، وكتاب الوصية وهي وصايا عدة لأصحابه رحمهم الله تعالى، وكتاب الرد على القدرية.(١)

ب- لم يؤلف في الفقه كتاباً فقد قيل كتاب الفقه الأكبر هو كتاب في الفقه لا في العقائد وأنه يحتوي على ستين ألف مسألة أو أكثر، لكن لم يوجد هذا، فالمشهور أن كتاب الفقه الأكبر في العقائد، لأن مشكلات العقيدة أخطر عند الإمام أبو حنيفة من أن يتركها لتلاميذه

---

١. عمر رضا كحاله: معجم المؤلفين - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ج١٣- ص١٠٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتخرجهم لأسلوب الفتاوى، فقد كان يعطى اهتمامه كله فى التأليف والكتابة إلى العقيدة يكتبها فى أسلوب سهل واضح محدد.

نقل الفقه الحنفى:

لم يعرف لـ ''أبى حنيفة'' كتاباً فى الفقه رتب أبوابه ونظم مسائله، إذ أن تأليف الكتب لم يشع إلابعد وفاة ''أبى حنيفة'' أو فى أواخر حياته، وقد أدركته الشيخوخه، وقد كان المجتهدون فى عصر الصحابة يمتنعون عن أن يدونوا فتاويهم أو اجتهادهم، بل امتنعوا عن تدوين السنة ليبقى المدون من أصول الدين: ''الكتاب وحده'' وهو عمود هذه الشريعة، ثم اضطر العلماء إلى تدوين السنة وتدوين الفتاوى والفقه.

تدوين الفقه:

أ- كان الفقه يدون تبعاً للمدارس الإسلامية، فقد كان فقهاء المدينة يجمعون فتاوى عبد الله ابن عمر، وعائشة، وابن عباس، ومن جاء بعدهم من التابعين فى المدينه، وينظرون فيها ويبنون عليها، وكان العراقيون يجمعون فتاوى عبد الله بن مسعود، وقضايا على وفتاواه، وقضايا شريح.

وقد روى أن حماد شيخ أبى حنيفة كانت لديه مجموعة، وهذه المجموعة لم تكن كتباً مبوبة بالمعنى المفهوم، بل كانت أشبه ''بمذكرات'' يرجع إليها المجتهد خشية النسيان، وقد ذاعت هذه المجموعات وكثرت فى عهد التابعين، وصارت نواة التأليف الخاص والعام، فألف مالك ''الموطأ''، ودون أبو يوسف كتاب ''الخراج'' وغيره من كتب الفقه العراقى، ثم جاء بعده محمد فدون ''الفقه العراقى كاملاً''.

ب- كان تلاميذه يدونون آراءه وكان ذلك بإملائه، وكانوا يدونون فتاويه وكان هو يراجع ما دون أحياناً ليقره أو ليغيره فقد جاء فى المناقب لابن البزازى ما نصه: ''عن أبى عبد الله، كنت أقرأ عايه أقاويله، وكان أبو يوسف أدخل فيه أيضاً أقاويله،وكنت أجتهد ألا أذكر قول أبى يوسف بجنبه، فزل لسانى يوماً، وقلت بعد ذكر قوله وفيها قول آخر فقال: ومن هذا الذى يقول هذا القول؟ فكنت أعلم بعده قول أبى يوسف لئلا أذكره عنده''.

وهذا النص يعطينا حقيقة هامة وهى أن تلاميذه دونوا أقواله بإشراف منه ومراجعته أحياناً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهنا نستطيع أن نقول:

أن فقه الإمام أبو حنيفة ورد الينا بهذه الصورة، فقد وضع أبو حنيفة مذهبه ''شورى''بينهم، ولم يستبد الإمام الأعظم ''أبو حنيفة'' برأيه فى الاجتهاد، فكان يلقى المسألة ويقلبها ويسمع ماعندهم ويقول ما عنده ويناظرهم حتى يستقر أحد الأقوال فيها، وعندئذ يثبتها أبو يوسف فى الأصول حتى أثبت الأصول كلها، ومن هنا دون مذهب أبى حنيفة وأصحابه، وجاء أصحابه فنشروه كتباً مبوبة مرتبة منظمة.

مسانيده فى الحديث

لقد ذكر العلماء مسند من الأحاديث والآثار منسوباً إلى الإمام أبى حنيفة، وهو مرتب على ترتيب الفقه، ومجمع فى ترتيب الأحكام تجميع الكتب المؤلفة، أفهذا المسند من عمله. وترتيبه منسوب إليه؟ أم أنه رواية أصحابه عنه تلقوه بالطريقة التى تلقوا بها فقهه وهى أن يدونوا ماينكره لهم فى درسه ثم جمعوا تلك المرويات، فرتبوها وبوبوها ونشروها.

من المؤكد أن أبا يوسف جمع طائفة كبيرة من تلك المرويات وسماها الآثار وقد اتحدت مرويات كثيرة فى كلا الكتابين.

فهل هذه المرويات لأصحابه فى المسند الذى ينسب إليه؟ لقد قال بعض العلماء ذلك، ورجحه كثيرون، وقد قال ''ابن حجر العسقلانى فى كتاب تعجيل المنفعه، مانصه '' أما مسند أبى حنيفة فليس من جمعه، والموجود من حديث أبى حنيفة إنما هو كتاب الآثار الذى رواه محمد بن الحسن عنه، ويوجد فى تصانيف محمد بن الحسن وأبى يوسف قبله من حديث أبى حنيفة أشياء أخرى.(١)

وكان قد اعتنى أبومحمد الحارثى، وكان بعد الثلاثمائة بحديث أبى حنيفة، فجمعه فى مجلد، ورتبه على شيوخ أبى حنيفة، وكذلك خرج منه المرفوع الحافظ أبو بكر بن المقرى، وتصنيفه أصغر من تصنيف الحارثى، ونظيره مسند أبى حنيفة للحافظ أبى الحسن بن المظفر، وأما الذى اعتمده أبو زرعة أبوالفضل بن الحسين العراقى الحسينى على تخريج رجاله فهو المسند الذى خرجه الحسين بن خسرو، وهو متأخر، وفى مسند ابن خسرو زيادات عما فى مسند الحارثى وابن المقرى.

---

١. الكوثرى: بلوغ الأمانى فى سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيبانى - ص٦٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وترى من هذا أن ابن حجر يقرر أن المسند المنسوب إلى أبي حنيفة ليس من جمعه، ثم يذكر روايات العلماء لذلك المسند، وكذلك ما ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون رواية مسند ''أبو حنيفة'' ويحكي عن المؤيد محمد بن محمود الخوارزمي انه سمع من ينسبه ''أي أبو حنيفة'' الى قلة رواية الحديث فتحمس لـ''أبي حنيفة'' وجمع له خمسة عشر من مسانيده التي جمعها له فحول العلماء، لكنها لم ترتب ترتيباً مبوباً، بعكس مالكاً رضي الله عنه فقد دون موطأه ورواه عنه غيره مرتباً مبوباً.

لكن هذه النسبة تختلف بإختلاف رواتها، فأقواها سنداً الآثار لأبي يوسف، والآثار لمحمد، بل إن الدقة تختلف في هذين الكتابين، تجعلنا نطمئن إلى أن مافيهما من روايات مسندة لأبي حنيفة صحيحة السند إليه بلاريب، وإن كان الجمع والترتيب والتبويب لأبي يوسف ومحمد، كل فيما رواه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني: المنهج العقلي عند أبي حنيفة

أ - طبيعة المنهج.

ب- أصوله.

ج- موقفه من النقل والعقل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١- المنهج عند الإمام أبى حنيفة:

امتاز أبو حنيفة بأنه بعيد الغور فى تفكيره، عميق النظرة، شديد الغوص فى تعرف البواعث والأسباب والغايات لكل ما يقع تحت نظره من أعمال وأمور، ولقد كان يغشى الأسواق، ويتجر ويعامل الناس، ويدرس الحياة كما يدرس الفقه والحديث، ويجادل فى شئون العقيدة ومناهج السياسة، لذلك اثرت عنه آراء محكمة فى مناهج الفكر، وأخلاق الناس ومعاملتهم ، وما ينبغى أن يتبعه الشخص معهم.

لقد كان أبو حنيفة يرى أن العمل القويم يجب أن يكون مبنيا على المعرفة الصحيحة، فليس الخير عنده من يعمل الخير فقط بل الخير عنده من يعلم الخير والشر ، ويقصد إلى الخير عن معرفة لمزاياه ويجتنب الشر فاهما لمساويه ، وليس العادل هو الذى يكون منه العدل من غير معرفة للظلم، بل العادل هو الذى يعرف الظلم ومغبته ، والعدل وغايته، ويقصد إلى العدل لما فيه من شرف الغاية وحسن المغبة.

ولقد قال فى هذا المقام فى كتاب " العالم والمتعلم " : اعلم أن العمل تبع للعلم، كما أن الأعضاء تبع للبصر، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير، ومثل ذلك، الزاد القليل الذى لابد منه فى المفازة مع الهداية بها أنفع من الجهل مع الزاد الكثير[١]. وقد بين الله تعالى منزلة العلماء بقوله تعالى " **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** "[٢].

قال المتعلم لأبى حنيفة رحمه الله : أرأيت إن كان رجل يصف عدلا، ولا يعرف جور من يخالفه، ولا يسعه ذلك ، أيقال إنه عارف بالحق أو هو من أهله ؟ فأجابه العالم إذا وصف عدلا ولم يعرف جور ما يخالفه ، فإنه جاهل بالعدل والجور. واعلم يا أخى أن أجهل الأصناف كلها وأرداهم منزلة عندى لهؤلاء، لأن مثلهم كمثل نفر أربعة، يؤتون بثوب أبيض، فيسأل عن لون ذلك الثوب ، فيقول واحد من هؤلاء الأربعة، هذا ثوب أحمر ويقول الآخر:

---

١. الإمام أبو حنيفة: العالم والمتعلم، تحقيق محمد رواش قلعجى ، عبد الوهاب الندوى، مكتبة الهدى ــ حلب ص ٣١ ، ٣٢.

٢. سورة الزمر : آية رقم ٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا ثوب أصفر، ويقول الثالث: هذا ثوب أسود، ويقول الرابع: هذا ثوب أبيض. فيقال له: ما تقول في هؤلاء الثلاثة أصابوا أم أخطأوا، فيقول: أما أنا فأعلم أن الثوب أبيض، وعسى أن يكون هؤلاء قد صدقوا، كذلك أهل هذا الصنف من الناس، يقولون إنا نعلم ليس كافراً وعسى أن يكون الذى يرى أن الزانى إذا زنى ينزع منه الإيمان كما ينزع السربال صادقاً فإنا لا نكذبه، ويقولون : من مات ولم يحج، وقد أطاق الحج فنحن نسميه مؤمناً، ونصلى عليه ونستغفر له ونواريه، ونقضى عنه حجه.(١)

كذلك فإن طبيعة التفكير فى العقيدة وعوامل الاختلاف في فهمها فى هذه المرحلة، وجدناها فى التغيير والتبديل لحال الجماعة الإسلامية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم عنه على حالها فى عهده عليه السلام، كان موضوع التفكير في مرحلته صلى الله عليه وسلم هو الله جل جلاله سواء باعتبار ذاته أو باعتبار علاقته بالمخلوقات، وكذا علاقته بالإنسان وعلاقة الإنسان به، كان المحور الذى تركزت حوله الدعوة التيمية كما عرضها وصورها القرآن الكريم.

فباعتبار ذاته وصفه الكتاب الكريم بأنه الأول والآخر والظاهر والباطن والقيوم والواحد، والعظيم والقهار والحميد والمجيد وغير ذلك من الصفات التى تصور الله غنياً بنفسه، أبدياً محيطاً بكل شئ، وباعتبار صلته بمخلوقاته تحدث عنه بأنه الخالق المطلق الذى لا قوة غير قوته ولا سلطان غير سلطانه، وباعتبار علاقته بالإنسان ذكره بأنه الرحمن الرحيم والغافر والغفور وباعتبارعلاقة الإنسان به نعته بأنه المهيمن والهادى والوكيل.(٢)

فالصلة وثيقة بين خلاف فى الجماعة المعتقدة ومحاولة من المختلفين لفهم العقيدة، فإذا طرأ الخلاف فى جماعة ظهر فيها تخريج لنصوص هذه العقيدة تخريجات متنوعة على قدر طوائف المختلفين وعدد آرائهم.

يقول الشهرستانى فى الملل والنحل عن هذا الاختلاف:

---

١. أبو حنيفة: العالم والمتعلم، ص٣٧.

٢. د.محمد البهى: الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٩٨هـ- ١٩٤٨م- ص٢٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١-بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أهل مكة من المهاجرين رده إلى مكة لأنها مسقط رأسه، وأراد أهل المدينة دفنه بالمدينة لأنها دار هجرته، وأراد جماعة نقله إلى بيت المقدس لأنه موضع دفن الأنبياء ومنه معراجه إلى السماء ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة لما روى عليه السلام ''الأنبياء يدفنون حيث يموتون''.

٢-اختلف المهاجرون مع الأنصار فى الإمامة، فقالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير واتفقوا على رئيسهم سعد بن عبادة الأنصارى فاستدركه أبو بكر وعمر فى الحال بأن حضروا سقيفة بنى ساعدة وقبل أن يشتغل الأنصار بالكلام مد عمر يده إلى أبى بكر لمبايعته وبايعه الناس.

٣-فى خلافة أبى بكر اختلف المسلمون فى قتال مانعى الزكاة، فقال: قوم لا نقاتلهم فقتال الكفرة، وقال قوم نقاتلهم حتى قال أبو بكر لو منعونى عقالاً مما أعطوا رسول الله لقاتلتهم عليه، ومضى بنفسه إلى قتالهم ووافقه الصحابة بأسرهم.

٤-فى وقت وفاة أبى بكر نص أبو بكر على الخلافة لعمر فقال بعض الناس قد وليت علينا فظا غليظاً وارتفع الخلاف عندما قال أبو بكر لو سألنى ربى يوم القيامة لقلت: وليت عليهم خير أهلهم.[1]

هذه مظاهر متعددة للخلاف الذى وقع فى الجماعة الإسلامية وهو جدير بأن يخلق أحزاباً وينشئ طوائف مستقلة داخل الأمة، والخلاف ابتدأ فى نطاق ضيق لكنه أخذ فى الاتساع على مر الزمن، فكلما ابتعد الزمن بالمسلمين عن أيام الدعوة وجدنا ميلاً شديداً على النزاع والخلاف.

أ - طبيعة المنهج عند أبى حنيفة:

أولا: طبيعة المنهج عند كل من مدرسة أهل الرأى ومدرسة أهل الحديث:

كان أهل العراق لا يتحرجون من إعمال الرأى، لأنهم واجهوا فى حياتهم الجديدة إلى جانب الداخلين فى الإسلام من الأجانب كثيراً من الشئون التى تتصل بحياة الأسر، ولم يكن

---

١. د. محمد البهى: الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى، ص٢٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للمسلمين بد من الحكم فيها فأفتوا بها بما كان يتفق مع العرف أو بما كان يهديهم إليه الـــرأى الاجتهادى.

على أن العراقيين لم يكونوا يجمعون على العمل به، فإن علماءهم كانوا يختلفون فيمـــا بينهم، فمن مبالغ فى التشدد لا يجنح إلى الرأى إلا عند تقطع الأسباب وإعـــواز النصـــوص، ومن متساهل لا يرى فى إعمال الرأى والاجتهاد خروجاً عن التشريع لأنهم كانوا يـــرون أن الشريعة معقولة المعنى، وأن لها أصولاً ثابتة يمكن الرجوع إليها عند الحاجة.(١)

ولما كان أكثر أهل الحجاز يتحرج من الرأى ويرى العمل به محنه، كان أكثر أهـــل العراق لا يحجم عنه بل كان يتحرج من كثير من الأحاديث ويرى الأخذ بها محنه وحجته فى هذا بعد ما بين الناس وبين مصدر التشريع وعدم الوثوق من صحة كثير ممـــا يـــروى مـــن أحاديث.

وكما قلنا سابقاً إن أصحاب أهل الرأى قد رأوا أن المجتمع الإسلامى وقد امتزجت بـــه ثقافات عديدة كان من شأنها اتساع الفكر وتنوعه، فقد تبدلت الحياة عند العرب فخرجوا مـــن باديتهم التى إعتمدت حياتهم فيها على أسس واضحة لا تقتضى تفكـــيراً فلســـفياً، واتصلـــوا بعناصر متنوعة الثقافة مختلفة المشارب والطباع أثرت فيها وتأثرت بها، بدأت تغلـــب علـــى النص الدينى النزعات العقلية التى لم تكن فى جملتها إلا نتيجة لهذا التفاعل، فقد كان الســـلف الأول يعتمدون على النقل وهو منهج يقوم فى عامة أمره على الخبر، وابن خلدون يصور لنـــا هذه الفترة فيقول: ''ومازال ذلك متناقلا بين الصدر الأول والسلف حتى صـــارت المعـــارف علوماً''.(٢)

وتبعاً للأسباب التى بدأنا بها الحديث ما لبث أن اتسع المنهج الفكرى... واتخذ ســـبيله فى البحث والاستقصاء، وكان من نتاجه حرية التحليل والاستنباط.

---

١. د. مهدى المخزومى: مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو، مكتبة مصطفى البابى الحلبـــى- القاهرة- ١٣٧٧هـــ - ١٩٥٨م - ص٣٦.

٢. ابن خلدون: المقدمة ط، كتاب التحرير، القاهرة ١٩٦٦م، ص٣٧٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهنا يظهر تساؤل عن أثر تلك الحرية الفكرية فى النص الدينى؟ وللإجابة على هـذا التساؤل نشير إلى نقطتين:

الأولى : قد تؤدى هذه الحرية العقلية إلى التخفف من المسئولية المنوطة بالنص.

الثانية : هذه الحرية تمنح الرأى جرأة تتسع معه دلالة النص وتتنوع بعد أن كـان التفسير يتناول ما حول النص دون تعمق أو اتساع.

ولقد جاء الإسلام وسط عقائد فاسدة ومع هذا فقد أطلق للعقل حريته فى مجال البحث ليهتدى الإنسان بنظره دون إجبار.

وقد قال الله تعالى فى ذلك "**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**[١]، "**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**"[٢].

فطلب من الناس تفهم أمر هذه الشريعة ليعرفوا أهدافها ويتوصلوا إلى حكم الله بينهم: "**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**".[٣]

وحول هذه الحرية المتعقلة "يقول الفيلسوف جوستاف لوبـون Gustave Le Bon صاحب كتاب حضارة العرب: La civilisation Des Arabes إن العرب أول مـن علـم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين".[٤] وهذا قول له قيمته فهو آت من غير أبنـاء العربية.

وأمام هذه الأضواء التى أنارت طريق العقل لم يتوان المسلمون فى إبداء الرأى عنـد المصلحة، فالرأى كان معمولاً به منذ زمن الرسول، يظهر فى رضاه عليه الصلاة والسـلام عن معاذ بن جبل عندما قال: "أجتهد رأيى بعد النظر فى الكتاب والسنة إذا احتكم إليه فـى أمر من الأمور"، ويشير العلماء كذلك إلى أن فقه عائشة - وهى أصل من أصول مدرسـة

---

١. سورة الغاشية: آية رقم ٢١،٢٢.

٢. سورة يونس: آية رقم ٩٩.

٣. سورة محمد: آية رقم ٢٤.

٤. الإمام محمد عبده: الإسلام دين العلم والمدنية - تحقيق طاهر الطناحى - ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٤- ص ١٢٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدينة في عصر الصحابة - أنها كانت في منهجها لا تبخس اللفظ دلالته، تتذوق المعنى وتسبر أغواره، إذ ترى في ذلك سنة القرآن في مخاطبة العقول، ودعوته إلى النظر والتدبر.

وما أن انقضى عصر الصحابة أو ما يسمونه بعصر السلف وهي الفترة الأولى للهجرة كما أشار بعض العلماء حتى انتشر التوسع في استعمال الرأى[١]، وهنا ظهر موقفان: موقف يتشدد في قبول التفسير ما لم يرد فيه قول للنبي أو صحابته، يظهر ذلك في قول الشعبي: ثلاثة لا أقول فيهن حتى أموت ''القرآن والروح والرأى'' وهو اتجاه يمثل الحرج الشديد من استعمال الرأى، وموقفا آخر لم يجد بأساً من تفسير القرآن حسب الاجتهاد، وعلى هذا جرى كثير من المفسرين فاجتهدوا وقالوا بآرائهم، وكان أكثر من قام بهذا علماء العراق موطن أصحاب مدرسة الرأى في التشريع.[٢]

سمات مدرسة الرأى:

انتشرت هذه المدرسة بالعراق وذلك للأسباب الآتية:

١-تأثر عبدالله بن مسعود بعمر بن الخطاب، فكان يعجب بآرائه وروى عنه أنه قال: إني لأحب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم، وكان عبدالله بن مسعود من منحى عمر، وأظهر مناحيه الاعتداد بالرأى حيث لا نص، وقد كان علم أهل العراق من عبدالله بن مسعود، وأن مدرسة العراق توجت بأبي حنيفة.

٢-ما ذكره ابن خلدون من أنّ الحديث كان في العراق قليلاً، وكان أكثر رواة الحديث في الحجاز لأنه موطن النبي صلى الله عليه وسلم[٣].

٣-أن العراق قطر ممدن، فقد تأثر إلى درجة كبيرة بالمدنية الفارسية واليونانية، والمدنية تضع تحت عين المشرع جزئيات كثيرة تحتاج إلى التشريع لا يقاس بها القطر البدوى وما في حكمه، فإذا انضم إلى ذلك ما وصل إليهم من الحديث أنتج ذلك لا محالة إعمال الرأى.

وكان لمدرسة الرأى هذه مميزات واضحة وهي:

١-كثرة تفريعهم الفروع، وقد لجأ إلى ذلك أولاً كثرة ما يعرف لهم من الحوادث نظراً لمدنيتهم، ثم ساقهم ذلك إلى وراء الفروض، فأكثروا من "أرأيت لو كان كذا؟" فيسألون

---

١. محمد رشيد رضا: تفسير المنار للإمام محمد عبده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، ج٣/١٥٠.

٢. السيوطي: الاتقان في علوم القرآن، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٩٥١، ج٢/ص١٨٣.

٣. أحمد أمين: فجر الإسلام - ص٣٨٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسألة ويبدون فيها حكماً، ثم يفرعونها بقولهم: "أرأيت لو كان كذا؟" ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة أحيانا، حتى سماهم أهل الحديث "الأرايتيون".[1]

٢-قلة روايتهم للحديث، واشتراطهم فيما يؤخذ به من الحديث شروطاً لا يسلم معها إلا القليل.

٣-مغالاة بعض رجال هذه المدرسة فى عدم الأخذ بالحديث، وحجتهم فى ذلك شكهم المطلق فى رواة الحديث، وكثرة من حرجه المحدثون حتى يكادوا لا يتفقون على أمانة محدث وصدقه، فقالوا: '' لا نترك كتاب الله الثابت المقطوع به لمثل هذا الحديث المشكوك فيه، وحتى من ظهرت أمانته، فمن يدرينا ما دخيلة نفسه''، وهناك جماعة أخرى ذهبوا إلى أنه لا يؤخذ من الأخبار إلا ما اجتمع عليه، فأما ما اختلفوا فيه فيقدم الرأى والقياس عليه.

وعن طبيعة منهج أهل الحديث:

انتهجت مدرسة أهل الحديث منهجا مختلفاً عن مدرسة أهل الرأى، وتعتبر هذه المدرسة أصولاً فى الصحابة، كالعباس، والزبير، ثم عبدالله بن عمر بن الخطاب، ومن هذه المدرسة الشعبى من التابعين فإنه يقول: ''ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله فخذوه وما كان من رأيهم فاطرحوه فى الحش''[2]، ومذهب هؤلاء أنهم إذا سئلوا عن شئ فإن عرفوا فيه آية أو حديثاً أفتوا وإلا لم يقولوا شيئاً.

وقد روى عن عبدالله بن أحمد بن حنبل أنه قال: سألت أبى عن الرجل يكون ببلد لا يجد فيه إلا صاحب حديث لا يعرف صحيحه من سقيمه، وأصحاب رأى، فتنزل به النازلة، فقال أبى: يسأل أصحاب الحديث ولا يسأل أصحاب الرأى، ضعيف الحديث أقوى من أصحاب الرأى.

وأظهر ما كانت هذه المدرسة فى الحجاز لعكس الأسباب التى ذكرناها فى العراق، **وكان من مميزات هذه المدرسة.**

---

١. أحمد أمين: فجر الإسلام - ص٣٨٣.

٢. المرجع السابق - ص٣٨٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولاً : كراهيتهم الشديدة للسؤال عن الفروض، لأن المصدر عندهم وهو الحديث محدود، وهم يكرهون إعمال الرأى، وقد رويت أقوال كثيرة تدل على كراهيتهم للسؤال عن حادثة إلا إذا وقعت فعلاً، وعيبهم على العراقيين إثارة الفروض.

ثانيا : اعتدّت بالحديث حتى الضعيف منه، وتساهلهم فى شروطه وتقديمهم ذلك على الرأى، وعن الأوزاعى قال: '' كتب عمر بن عبدالعزيز أنه لا رأى لأحد فى كتاب الله وإنما رأى الأئمة فيما لم ينزل فيه كتاب ولم تمضى فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا رأى لأحد فى سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم''.(١)

ثالثا : تغالى أصحاب الحديث كما تغالى أصحاب الرأى، حتى قال بعضهم إن السنة حاكمة على الكتاب، وليس الكتاب حاكماً على السنة، وحتى كان العصر الثانى من يقول إن السنة تنسخ الكتاب.(٢)

ورغم اختلاف مدرستى الرأى والحديث، إلا انهما اتفقتا على أن الكتاب والسنة هما الأصلان وهما مصدر التشريع، وأن القانون الإسلامى إلهى، مصدره الله فيما نص عليه من كتاب وحديث ليست لأية سلطة حق فى مخالفتها، إنما يجتهد المجتهدون فيما لم يرد فيه نص مسترشدين بما ورد فى الكتاب والسنة من قواعد كلية، حتى الأحاديث الموضوعة نفسها كان لها فضل فى التشريع فإنها لم توضع اعتباطاً، ولا كانت مجرد قول يقال، إنما كانت فى الغالب نتيجة تفكير فقهى وبحث واجتهاد، ثم وضع هذا الرأى وهذا الاجتهاد فى قالب حديث.

وقد ارتقى كذلك مبحث الرأى ونظم ووضعت له قواعد وشروط وسمى بالقياس، وحصر الرأى بعد وضع هذه القواعد والنظم فى دائرة ضيقه لا تتعدى غالباً تشبيه ما لم ينص عليه بما نص عليه لعلة تجمعهما، من هنا تمكنت العقيدة الإسلامية فى النفوس وآتت ثمرتها فى الالتقاء بين المدرستين.(٣)

---

١. شاه ولى الله الدهلوى: حجة الله البالغة، المطبعة المصرية السنية، ١٢٨٦هـ، ص١٤٩.

٢. أحمد أمين: فجر الإسلام - ص٣٨٧.

٣. د.مصطفى الشكعة: إسلام بلا مذاهب، طبعة سادسة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤٠٧هـ-١٩٧٨م، ص٣٨٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقيل له: "يا أبا حنيفة هذا الذى تفتى به هو الحق الذى لا شك فيه" قال: ''لا أدرى لعله الباطل الذى لا شك فيه...'' وقال زفر تلميذه: "كنا نختلف إلى أبى حنيفة، ومعنا أبو يوسف، فكنا نكتب عنه، فقال يوماً لأبى يوسف: ويحك يا يعقوب، لا تكتب ما تسمعه منى، فإنى قد أرى الرأى اليوم فأتركه غداً، وأرى الرأى غداً فأتركه بعد غد، فكان لا يفرض فى رأيه أنه الحق المطلق الذى لا يشك فيه بل كان يقول: ''قولنا هذا رأى، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا، فهو أولى بالصواب منا''.[١]

فكان يرجع عن رأيه إن بدا له آخر، وكان يرجع حتما عن رأيه إذا ذكر له مناظره حديثا مرويا، فإنه ليس مع الحديث رأى طالما أنه لم يفتى بخلاف ما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٢]

وقد كان يمتلك فراسة دقيقة يستنبط بها ما يخفيه الرجال، ويدرك عواقب الأمور وكان يمتلك ما يسمى بالفقه المتفطن وهو معرفة مراد صاحب الحديث من قوله وحكمته فيه من العلة الباعثة عليه والنائبة له، وهذه المعارف العالية لا تنال إلا بفضل الروية، وذكاء العقول وطول التدبر.[٣]

نستطيع أن نستخلص مما سبق طبيعة المنهج عند الإمام أبى حنيفة فقد سلك مسلك أهل السنة والجماعة فى تلقى مسائل الشرع والاعتقاد مسلكاً قويماً ومنهجاً سديداً، مبنياً على الكتاب والسنة، وإجماع السلف الصالح، فكانت ثمراته اعتقاداً سليماً نقياً، وثباتاً على الحق، ومجانبه للأهواء والبدع، وقد قال الله – سبحانه وتعالى– فى بيان كيفية منهج التلقى عند أهل السنة والجماعة: **''هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ''.**[٤]

---

١. محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية – ص٣٦٢.

٢. د محمود عبدالله العكازى، مباحث فى علم أصول الفقه طبعة جامعة الأزهر، ص٣٢.

٣. محمد رشيد رضا: تفسير المنار للإمام محمد عبده، ج٥/ص٢٣٣.

٤. سورة آل عمران: آية رقم ٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعتبر طريقة المنهج عند الإمام أبى حنيفة هى طريقة فقهاء مدرسة الكوفه الفقهيه التى تقوم على أساس أن أحكام الشرع معقولة المعنى وأنها مشتملة على مصالح تعود على العباد، وما دامت الأحكام الشرعية لها علل من أجلها شرعت الأحكام وتترتب عليها مصلحة الخلق، فلابد لهم من البحث عن هذه العلل وربط الحكم بها وجوداً وعدماً، وربما ردوا بعض الأحاديث لمخالفتها لهذه العلل ولا سيما إذا وجدوا لها معارضاً.

وقد تشدد علماء هذه المدرسة فى قبول الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فردوا أخبار الآحاد.[1] وقدموا القياس عليها، وقد دعاهم إلى هذا التشدد ظهور

١- أخبار الآحاد: هى ما رواها عن الرسول صلى الله عليه وسلم عدد لا يبلغ حد "التواتر" أى توفر الجمع الذى يمتنع اتفاقهم على الكذب، وسنة الآحاد لا تفيد العلم وإنما تفيد الظن لاغير، ولهذا لا يصح الاعتماد عليها فى الأحكام الاعتقادية، وإنما يعمل بها فى الأحكام العملية إذا تحققت الشروط المعتبرة فيها.

وقد اشترط علماء الحنفية للعمل بأخبار الآحاد شروطاً ثلاثة وهى:

أولا: ألا يعمل الراوى أو يفتى بخلاف ما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن عمل أو أفتى على خلاف ما رواه فأن العبرة تكون بعمله أو بفتواه لا بروايته ووجهتهم فى ذلك أن الراوى لا يخالف ما رواه عن الرسول إلا إذا قام لديه دليل يدل على نسخه وإلا كان طعنا فى عدالته فيجب إتباعه والعمل برأيه لا بروايته. ولهذا لم يعمل الحنفية بما رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب" لمخالفة فتواه لهذا الحديث فقد صح عن أبى هريرة نفسه أنه كان يكتفى بالغسل ثلاث مرات ويفتى بذلك، كما رواه الدارقطنى فأعتبروا فتواه دليلاً على أن الحديث منسوخ وعملوا بهذه الفتوى واكتفوا بالغسل ثلاثاً ولم يوجبوا غسل الإناء الذى ولغ فيه الكلب سبع مرات".

ولم يعملوا كذلك بما روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال" أيما امرأة تزوجت بغير إذن وليها فزواجها باطل، وأجازوا للمرأة أن تتولى مباشرة عقد الزواج لنفسها ولغيرها. لأن عائشة عملت على خلافه، فقد زوجت بنت أخيها عبدالرحمن وهو غائب بالشام فلما حضر غضب لذلك وقال: أمثلى يفتأت عليه فى بناته ولكن لم ينقل أنه أبطل العقد لوقوعه بدون إذنه أو حضوره.

ثانيا : ألا يكون الحديث وارداً فيما يتكرر وقوعه، ويحتاج كل مكلف إلى معرفة حكمه وهو ما يعبر عنه فى كتب الأصول – بعموم البلوى – أى كثرة تكرار الحادثة فإذا كان الآحاد وارداً فى حادثة من تلك الحوادث التى يكثر وقوعها فإن الحنفية لا يقبلونه ولا يعملون به لأنه لا تتوافر الدواعى على نقله بطريق التواتر أو الشهرة، فإذا ورد بطريق الآحاد كان ذلك أمارة على عدم ثبوته عن الرسول عليه السلام.

وبناء على هذا لم يعمل الحنفية بما رواه عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه عند الركوع وعند الرفع منه وقالوا: إن رفع اليدين عند الركوع وعند رفع الرأس منه من الأمور التى يكثر وقوعها ويحتاج الناس إلى معرفة الحكم فيها، فلو كانت السنة الواردة فيه ثابتة عن الرسول عليه السلام لنقلها عدد كثير وحرص الناس على روايتها.

وكذلك لم يعملوا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم عند قراءة الفاتحة فى الصلاة لأن القراءة فى الصلاة من الأمور المشهورة التى يطلع عليها العدد الكثير، فلو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأحاديث الموضوعة في العراق، فكان عليهم أن يتشددوا في قبول رواية السنة، ويحتاطوا لها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، وقد اكتفوا بما رواه صحابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذين نزلوا بالعراق.

٢- أصول المنهج عند الإمام أبي حنيفة:

كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى حافظاً لكتاب الله تعالى: يقوم به إناء الليل وأطراف النهار، كما كان حافظاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذه من حفاظ العراق والحجاز، وكان حافظاً لأقوال الصحابة رضوان الله عليهم، ما اجتمعوا عليه وما اختلفت فيه آراؤهم. كما آتاه الله تعالى لما زينه به من تقوى وصدق وإخلاص، بصراً بالدين،

كانت السنة الواردة في الجهر بالتسمية ثابتة لاشتهرت روايتها ونقلها الكثير من الرواة، لأن شهرة الحادثة تقتضي شهرة الحديث الذي يدل على حكمها فإذا لم يشتهر كان ذلك دليلاً على عدم الصحة، ومن ثم كان المقرر في مذهب الحنفية عدم رفع اليدين عند الركوع وعند رفع الرأس منه، والإسرار بالتسمية في الصلاة.

ثالثا : أن يكون الحديث مخالفاً للقياس والأصول الشرعية إذا كان الراوي له غير فقيه.

وهذا الشرط ذكره كثير من علماء الأصول وعللوا اشتراطه بأن الرواية بالمعنى كانت شائعة بين الرواه، فإذا لم يكن الراوي فقيها لم يؤمن أن يذهب شئ من المعنى الذي يبنى عليه الحكم وعد من الرواة الذين لم يعرفوا بالفقه أبا هريرة وأنس بن مالك وسلمان الفارسي وبلالاً رضي الله عنهم، وبناء على هذا الشرط لم يعمل الحنفية بحديث المصراة وهي: (الشاة أو الناقة التي يجمع اللبن في ضرعها بالشد والربط بخرقة وترك الحلب ليظنها المشتري غزيرة اللبن فيقبل على شرائها، وقد روى حديث المصراة أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا تصروا الإبل والغنم فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها أن رضيها أمسكها وإن سخطها ردها ورد معها صاعا من تمر.

ولهذا لم يكن للمشتري عندهم الخيار في رد البيع بعيب التصرية لأن التصرية لا تعد عيباً يجيز للمشتري الرد به وإنما يكون له الحق في الرجوع بمقدار الغبن في الثمن إذا ترتب على التصرية ضرر وغبن.

وقد علل الحنفية ترك العمل بهذا الحديث بأنه من رواية أبي هريرة، وأبو هريرة لم يكن فقيها، وهو مخالف للأصول الشرعية لأمرين :

أولا : مخالف لقاعدة الضمان التي تقول إن الضمان يكون بالمثل في المثليات وبالقيمة في القيميات، لأن التمر بالنسبة إلى اللبن ليس مثلا له ولا قيمة، فإلزام المشتري بدفع صاع منه إلى البائع في مقابلة ما أخذه من اللبن يخالف قاعدة الضمان الشرعية المذكورة.

ثانيا : إن هذا الحديث يخالف قاعدة "الخراج بالضمان" فإنها تجعل الغلة الناتجة من العين ملكاً لمن يكون ضمان العين عليه ومقتضاها أن اللبن يكون للمشتري مجانا لأنه إذا قبض العين كانت في ضمانه فيكون أمر المشتري برد صاع من التمر مخالفا لها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفهماً قلما يؤتاه رجل من الناس، ورزقه الله شيوخاً هم جبال فى الحفظ والإقبال على الله تعالى.

ويعتبر الإمام أبو حنيفة من الذين أكثروا من التفريع فى المسائل ودراستها حتى أدته كثرة التفريع إلى فرض مسائل لم تقع وهى ممكنة الوقوع بين مخارجها وأحكامها، وكتب محمد بن الحسن الشيبانى مشحونة بالفروع المنقولة عنه، والمتأمل فيها، والمتعرف لأسرارها يراها مرتبطة بتفصيلات محكمة، فلابد أن تكون قائمة على أصول، ولابد أن تكون موسسة على قواعد الاستنباط ولم يسعف التاريخ الفقهى بيان هذه القواعد مفصلة بسند متصل إلى أبى حنيفة نفسه، ولكن مما لاشك فيه أن هناك قواعد كانت معتبرة لدى أبى حنيفة فرع عليها، واستخرج الأحكام على ضوئها وبهدايتها.

وقد وجد فى كتب المتأخرين أصولاً مفصلة، قرروا أنها أصول الاستنباط فى المذهب الحنفى، وذكروا اختلافات بين أئمة ذلك المذهب فى هذه الأصول، فقالوا هذا الأصل هو رأى أبى حنيفة، وذلك رأى صاحبه، وذلك رأيهم جميعاً، وهكذا.[1]

ومع أن الأصول التى يذكرها الحنفية على أنها أصول المذهب الحنفى أو الأصول التى بنى عليها أئمته استنباطهم، ليست من وضع أئمته حتى يقال إنهم وضعوها أنفسهم بالاستنباط على أساسها، بل هى من وضع العلماء فى ذلك المذهب الذين جاءوا بعد عصر الأئمة وتلاميذهم الذين اتجهوا إلى استنباط القواعد التى يضبط بها استنباط فروع المذهب، فهى جاءت متأخرة عن الفروع، ومع أن هذه الأصول قد استنبطها المتأخرون، ولم تؤثر عن الأئمة وتلاميذهم لابد من الإشارة إلى أمور ثلاثة وتقرير الحقائق بشأنها.

أولاً : إن أبا حنيفة وإن لم يؤثر عنه أصول مفصلة للأحكام التى استنبطها، لابد أن تكون له أصول لاحظها عند استنباطه، وإن لم يدونها، كما لم يدون فروعه، فإن التماسك الفكرى بين هذه الفروع المأثورة الذى يستبين عند ترديد النظر يكشف عن فقيه كان يقيد نفسه بقواعد لا يخرج عن حدودها فهو قد أحاط علماً بطرق الأخبار والسنن

---

١. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره- ص٢٠٤-٢٠٥.

٢. د.عبداللطيف العبد: الأصول الفكرية لمذهب أهل السنة - ص٢٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وميز بين الصحيح منها والسقيم[٢]، وكونه لم يدونها ليس دليلاً على عدم وجودها.

ثانياً : إن العلماء الذين استنبطوا الأصول المدونة كالبزدوى وغيره كانوا يتلمسونها من أقوال الأئمة والفروع المأثورة عنهم، إذا نسبوا تلك القواعد للأئمة، ويذكرون أحياناً الفروع الدالة على صحة النسب فى هذه القاعدة.

ثالثاً : إن -أبا حنيفة- وإن لم يؤثر عنه قواعد تفصيلية فى الاستنباط قد أثرت عنه قواعد عامة للاستدلال، فقد ذكر كتاب المناقب وغيرهم ممن تصدوا لبيان تاريخه الينابيع التى استقى منها، فقهه، وتواترت أقواله فى هذه الأدلة إجمالاً لا تفصيلاً، ولا شك أنه لابد عند دراسة الأصول التى بنى عليها استنباطه من الاتجاه إلى هذه الأدلة التى ذكرها.[١]

جاء فى مناقب الإمام أبى حنيفة رحمه الله للموفق المكى بسنده إلى سهل بن مزاحم قال: كلام أبى حنيفة أخذ بالثقة وفرار من القبح، والنظر فى معاملات الناس وما استقاموا عليه وصلح عليه أمورهم، يمضى الأمور على القياس، فإذا قبح القياس أمضاها على الاستحسان ما دام يمضى له، فإذا لم يمض له رجع إلى ما يتعامل المسلمون به، وكان يؤصل الحديث المعروف الذى أجمع عليه، ثم يقيس عليه ما دام القياس سائغاً، ثم يرجع إلى الاستحسان أيهما كان أوفق رجع إليه، قال سهل: هذا علم أبى حنيفة رحمه الله تعالى علم العامة.

وجاء فى المناقب أيضاً بسنده إلى الصيمرى قال: أخبرنا عمر بن إبراهيم أنبأ مكرم، أنبأ أحمد، أنبأ على ابن المدينى، سمعت عبدالرازق يقول: كنت عند معمر، فأتاه ابن المبارك، فسمعنا معمراً يقول: ما أعرف رجلاً يتكلم فى الفقه ويسعه أن يقيس ويستخرج فى الفقه أحسن معرفه من أبى حنيفة.[٢]

ونقل ابن عبد البر بسنده إلى محمد بن الحسن رحمه الله تعالى قال: العلم على أربعة أوجه: ما كان فى كتاب الله الناطق وما أشبهه، وما كان فى سنة رسول الله صلى عليه وسلم المأثورة وما أشبهها، وما كان فيما أجمع عليه الصحابة وما أشبهه، وكذلك ما اختلفوا فيه، لا

---

١. محمد أبو زهرة- أبو حنيفة حياته وعصره - ص٢٠٧.

٢. الموفق بن احمد المكى: مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة - ج١/٨٢.

٣. د.مصطفى السباعى: السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى - الدار القومية للطباعة والنشر - ص٣٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يخرج على جميعهم، فإن وقع الاختيار فيه على قول فهو علم نقيس عليه مـــا أشـــبهه، ومـــا استحسنه فقهاء المسلمين وما أشبهه وكان نظيراً له، ولا يخـــرج العلـــم عـــن هـــذه الوجـــوه الأربعة.(٣)

هذه النقول فى جملتها تدل على مجموع المصادر الفقهيه عند الإمام رحمه الله تعـــالى – فهى القرآن العظيم– والسنة الشريفة، وما أجمع عليه الصحابة وما اختلفوا فيـــه لا يخـــرج عن أقوالهم. والقياس – والاستحسان، والعرف – أى اتباع ما عليه الناس ببلده ويعنـــى بـــهم الفقهاء وأهل العلم.

١-القرآن العظيم:

هو كتاب الله تعالى، المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة ملك الوحـــى جبريل عليه السلام، المنقول إلينا تواتراً، والمجموع بين دفتى المصحف، والذى أعجز البشـــر عن الإتيان بأقصر سورة من مثله، ولا يزال يعجزهم ولن يزال بإذن الله تعالى.

والعقائد التى ورد القرآن الكريم بوجوب اعتقادها هى " أصول" الدين فـــالقرآن ومـــا اشتمل والحديث وما حوى بهما أصول الدين، وبالجملة صار أصلاً عن أصول الدين كل مـــن: ١- الإلهيات ٢- النبوات ٣- السمعيات ٤- التكـــاليف الواجبـــة كوجـــوب الصـــلاة والصوم.

والأصول التى تقر بوحدانية الله وصفاته ومعرفة الرسل بآياتهم لم يتجه فيها أبو حنيفة اتجاهاً عقلياً، ولم يعمل رأية أو قاس أو اجتهد فيها، فموقفه فيها واضح وهو الإيمان الكـــامل لكل نصوص الدين والنصوص هى أصول الدين، وقد حدد فيها الإمام أبو حنيفة منهجه وهـــى التمسك بالقرآن الكريم وتقديمه والسنة الشريفة وتقديمها والآثار الصالحة التى أتتنا من الســـلف الصالح وتقديمها.

لقد توقف الإمام "أبو حنيفة" أمام النصوص والأخذ بها دلالة على أن الإمام أبا حنيفـــة لم يتجه الاتجاه العقلى الذى عهد فى فكره العقلى فى الأصول الدينية على الإطلاق بمعنى أنـــه تلقى الإيمان والاحترام (أصول الدين) ودلل عليها بنفس مطمئنة آخذا بكتاب الله وسنة رســـول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله صلى الله عليه وسلم ووصل به الإيمان إلى القول ''إن المسح على الخفين سنة والتراويح في ليالي شهر رمضان سنة''.(١)

ويرى الإمام أبو حنيفة في نصوص (الوحي) أنها السراج الوهاج التي أضاءت للعقل طريقه، وكم حارب "المعتزلة" عندما عكسوا القضية فقدموا العقل على النص، فناظرهم وأغلظ لهم، لأن العقل يتوقف أمام قضايا لا يملك لها سبيلاً مثل (الصفات والاستواء)، وإذا وصلنا لهذه النقطة - خدمة العقل للنص وهو صلب منهج (أبي حنيفة) العقلي - نجد أن الإمام الأعظم لم يبخل بعقله ومنهجه على الأصول رغم قدسيتها إذ وجدناه دائب النظر فيها والشرح لها، ولذلك فهو أول من أبدع ترتيب الأصول.(١)

كان منهج الإمام في الأصول ثابتاً وهو يكافح في ثباته عن الأصول الدينية ويقينيتها ومشيراً إلى ما يجب مستلهما (النص الإلهي) ومؤمناً أنه لا رأي مع النص وإنما فيه الاتباع والشرح والتوضيح فمنهجه العقلي في خدمه الأصول وهو ما سمي الرأي المطور في تقرير مناهج الأصول.

والقرآن الكريم هو مصدر المصادر لهذه الشريعة وينبوع ينابيعها والمأخذ الذي اشتقت منه أصولها وفروعها وأخذت منه الأدله قوة استدلالها فهو بهذا الاعتبار كلي الشريعة، وجامع أحكامها ، ولقد روى عن عبدالله بن عمر أنه قال "من جمع القرآن فقد حمل أمراً عظيماً، وقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه " ولقد قال ابن حزم الظاهري كل أبواب الفقه ليس منها باب إلا وله أصل في الكتاب والسنة تعلنه" ولقد قال عز وجل "**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**''.(٢) ولقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول "من قرأ القرآن الكريم فليس فوقه أحد".

---

١. أبو حنيفة: الفقة الأكبر، عدد جمادى الأولى، وجمادى الآخرة، مجلة الأزهر، ١٤٠٣هـ، ص٢٠.

١. محمد زاهد الكوثري: إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق، ص١٠.

٢. سورة الأنعام: آية ٣٨.

٣. السنة المتواترة: هي ما نقلها عن الرسول صلى عليه وسلم جمع من الصحابة يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب، ثم رواها عن هذا الجمع، جمع من التابعين يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب ثم عن هذا الجمع جمع من تابعي التابعيين يمتنع التفاقهم على الكذب عادة (مباحث في علم أصول الفقه ص٢١).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والقرآن الكريم عند الإمام رحمه الله تعالى هو المصدر الأول والأعلى فـــى مســائل الفقه، لأنه الكتاب القطعى الثبوت، ولا يشك فى حرف منه وأنه ليس يوازى كلام الله تعـــالى، ولا يصل إلى -رتبته فى الثبوت إلا الحديث المتواتر-.(٣)

لذلك لا يرى رحمه الله تعالى نسخ القرآن الكريم بخبر الآحاد من السنة، وإنما يعمل بها مـــا أمكن، وإلا ترك السنة الظنية للكتاب القطعى. قال الله تعالى" **فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ**" وقال صلى الله عليه وسلم "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب'' متفق عليه، فيحكم بأن: أصل قراءة القرآن الكريم فى الصلاة ركن، أما تقسيم القراءة للقرآن الكريم إلى الفاتحة وبعض مـــا تيسر من القرآن، فذلك واجب، وبذلك عمل بالقرآن والسنة معاً.

ولذلك قال الشاطبى فى موافقاته ''لاينبغى فى الاستنباط من القرآن الاقتصـــار عليـــه دون النظر فى شرحه وبيانه وهو السنة، لأنه إذا كان كلياً وفيه أمور كلية كمـــا فـــى شـــأن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها فلا محيص عن النظر فى بيانه''.(١)

٢- السنة:

هى الأصل الثانى الذى اعتمد عليه أبو حنيفة رضى الله عنه فى استنباطه، وهى تلـــى الكتاب فى مرتبته، لأن الكتاب هو عمود هذه الشريعة وأصلها وينبوعها، منه تبين أن الســـنة مصدر من مصادرها، وهى بهذا متأخرة عنه فى الاعتبار، ثم هى مبينه لكله، والمبين متـــأخر عن المبَين، فهو له خادم، وهو منه بمنزلة التابع من المتبوع، والآثار متضافرة فى تأخر السنة عن الكتاب فى الاستدلال، وحديث عمر رضى الله عنه إلى شريح القاضى يثبت ذلـــك، فقـــد كتب له يقول: إذا أتاك أمر فاقض بما فى كتاب الله فإن أتاك ما ليس فى كتاب الله، فاقض مما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن مسعود أنه قال: ''من عرض لـــه منكـــم قضـــاء فليقض بما فى كتاب الله، فإن جاءه ما ليس فى كتاب الله، فليقض بما قضى به نبيه صلـــى الله عليه وسلم" ومثل ذلك روى ابن عباس رضى الله عنه.(٢)

---

١. محمد أبو زهرة - أبو حنيفة حياته وعصره - ص٢٣٥.

٢. شاه ولى الله الدهلوى: حجة الله البالغة، ص١٤٨، ١٤٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد قيل أن أبا حنيفة لم يعتمد على الأحاديث فى أحكامه لأنه لم يكن فى أيامه مجموعات منتظمة للأحاديث، وهذا غير صحيح لأن مجموعات عبدالملك والزهرى جمعت قبل وفاة أبى حنيفة بما لا يقل عن ثلاثين عاماً، وحتى لو فرضنا أن هذه الأحاديث لم تصل إلى يده إطلاقا، وقد كان من السهل عليه أن يجمعها بنفسه كما فعل مالك والإمام أحمد بن حنبل من بعده.(١)

وقد قيل أيضاً بمخالفته رضى الله عنه للسنة، وأكثر الذين أرادوا انتقاص قدره بعد وفاته من ذكر ذلك، وقد نفى التهمة عن نفسه، فقد كان رحمه الله يقول: ''كذب والله وافترى علينا من يقول: إنما نقدم القياس على النص وهل يحتاج بعد النص قياس؟.... وكان يقول '' نحن لا نقيس إلا عند الضرورة الشديدة، وذلك إننا ننظر فى دليل المسألة من الكتاب والسنة أو أقضية الصحابة، فإن لم نجد دليلاً قسنا حينئذ مسكوتا عنه على منطوقه به'' والرسول صلى الله عليه وسلم يقول محذراً من ترك العمل بما صح عنه من السنة: ''لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر بما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدرى ما وجدناه فى الكتاب اتبعناه''.(٢)

وكثيراً من الأحكام الشرعية مأخوذة من السنة النبوية، وكثيراً من هذه الأحكام التى ثبتت بالسنة هى فى الواقع تخصيص لظاهر القرآن وعمومه، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ''حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ'' الآية. فهى بنصها وظاهره عامة فى تحريم كل ميتة ودم، ولكن الرسول قال فى حديث له: '' أحلت لنا ميتتان السمك والجراد، ودمان الكبد والطحال'' فكان هذا الحديث مخصصاً لتلك الآية العامة، فالنبى صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معانى القرآن، كما بين لهم ألفاظه.(٣)

ويروى أن أبا جعفر المنصور كتب اليه : ''بلغنى أنك تقدم القياس على الحديث''؛ فرد عليه أبو حنيفة برسالة جاء فيها ''ليس الأمر كما بلغك يا أمير المؤمنين إنما أعمل أولاً بكتاب الله ،ثم بسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بأقضيه أبى بكر، وعمر،وعثمان،وعلى رضى الله عنهم ،ثم بأقضيه بقيه الصحابة، ثم أقيس بعد ذلك إذا اختلفوا ، وليس بين الله وبين خلقه قرابه''.(٤)

---

١. محمد إقبال: تجديد التفكير الدينى فى الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٥م - ص١٩٨.

٢. د.محمد يوسف موسى: ابن تيميه، عدد رقم ٥ من سلسلة أعلام العرب - مكتبة مصر - ص١٧٣.

٣. ابن تيميه، مقدمة فى أصول التفسير، دار الصحابة للتراث بطنطا ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م- ص٦٥.

٤. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص٢٣٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولذلك يمكن القول أنه ليس لأحد من فقهاء المسلمين أن يقدم القيـــاس الظنـــى علـــى الحديث الصحيح، ونسق الاستنباط الفقهى ألا يقف أمام الأصل القطعى الأصل الظنـــى، بـــل يؤخذ القطعى، ويحكم بعدم صحة النسبة فى الظنى.

وعن بيان ما كان يقبله الإمام من الأحاديث وما كان يـــرده قسـم علمـاء الحديـث والأصول الأحاديث بالنسبة لعدد رواتها إلى ثلاثة أقسام أحاديث متواترة، وأحاديث مشـــهورة وأحاديث آحاد.

وكما قلنا سابقاً: أن الحديث المتواتر بأن يرويه قوم يمتنع عادة أن يتواطأ أفراده علـى كذب، لكثرتهم وأمانتهم، واختلاف وجهاتهم وبيئاتهم، ورواها عن هذا الجمع جمع مثله، حتـى وصلت إلينا بسند كل طبقة من رواته جمع لا يتفقون على كذب من مبدأ التلقى عن الرســـول إلى نهاية الوصول إلينا.

والأحاديث المتواترة هى بلا ريب حجة عند أبى حنيفة رضى الله عنه، لم يعرف عنه رضى الله عنه أنه أنكر خبراً على تواتره وأنى يكون ذلك؟

٢- والأحاديث المشهورة: هى ما رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابى أو اثنان أوجمع لم يبلغ حد جمع التواتر، ثم رواها عن هذا الراوى أو الرواة جمع من جموع التواتـــر، ورواها عن هذا الجمع جمع مثله، وعن هذا الجمع جمع مثله، حتى وصلت إلينا بســـند، أول طبقة فيه سمعوا من الرسول قوله أو شاهدوا فعله فرد أو فردان أو أفراد لم يصلوا إلى جمـــع التواتر، وسائر طبقاته جموع التواتر ومن هذا القسم بعض الأحاديث التى رواها عن الرسـول عمر بن الخطاب أو عبدالله بن مسعود أو أبو بكر الصديق، ثم رواها عن أحد هؤلاء جمـــع لا يتفق افراده على كذب، مثل حديث ''إنما الأعمال بالنيات'' وحديث ''بنـــى الإســـلام علـــى خمس'' وحديث '' لا ضرر ولا ضرار''.[١]

---

١ عبدالوهاب خلاف: علم أصول الفقه، ص٤١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالفرق بين السنة المتواترة والسنة المشهورة: أن السنة المتواترة كل حلقة فى سلسلة سندها جمع التواتر من مبدأ التلقى عن الرسول إلى وصولها إلينا، وأما السنة المشهورة فالحلقة الأولى فى سندها ليست جمعاً من جموع التواتر بل الذى تلقاها عن الرسول واحد أو اثنان أو جمع لم يبلغ جمع التواتر وسائر الحلقات جموع التواتر.

وقد ذهب بعض علماء التخريج فى المذهب الحنفى إلى أنه مثل المتواتر، فيثبت به اليقين، لكن بطريق الاستدلال، لا بطريق العلم الضرورى كالعيان، وذهب فريق آخر من المخرجين أيضا فى مذهب أبى حنيفة وأصحابه إلى أنه علم الطمأنينة لا علم يقين، فهو دون المتواتر، وفوق خبر الواحد حتى جازت به الزيادة على كتاب الله تعالى.

وترى من هذا أن علماء التخريج على مذهب أبى حنيفة وأصحابه قد اجمعوا على أن المشهور يزاد به على كتاب الله تعالى: إذ إنه فى مرتبة أقوى من أحاديث الآحاد المطلقة، ولكنهم اختلفوا: أهو يصل إلى مرتبة المتواتر فى إفادة العلم اليقينى، أم لا يصل إلى مرتبته، وقد اتفقوا على قدر الاستدلال به فيزداد به على النص.

ومن الزيادة التى ثبتت بأحاديث مشهورة حد الرجم، فقد ثبت بحديث مشهور عندهم وهو قوله صلى الله عليه وسلم " الثيب بالثيب جلد مائة، ورجم بالحجارة" والخبر المشهور من أن النبى صلى الله عليه وسلم رجم ماعزاً المازنى، والمسح على الخفين ثبت بما روى مشهوراً عن النبى صلى الله عليه وسلم من أنه مسح على الخفين، وإشتراط التتابع فى صوم كفارة اليمين ثبت بما روى ابن مسعود.

وترى من هذا أن الفروع الفقهيه فى مذهب أبى حنفية قد أدت بالمخرجين فيه إلى أن يحكموا بأنه كان يرفع المشهور إلى مرتبة اليقين، أو مرتبة قريبة من اليقين، حتى إنه يصل إلى درجة تخصيص القرآن الكريم، والزيادة به على أحكامه، ولم يكن اختلاف هؤلاء المخرجين فى قوة المشهور من حيث اليقين كالتواتر، بمؤثر فى أحكام الفروع المروية.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣- وحديث الآحاد، وقد رواها عن الرسول آحاد لم تبلغ جموع التواتر بأن رواها عن الرسول واحد أو اثنان أو جمع لم يبلغ حد التواتر، ورواها عن هذا الراوى مثله وهكذا حتى وصلت إلينا بسند طبقاته آحاد لا جموع التواتر، ومن هذا القسم أكثر الأحاديث التى جمعت فى كتب السنة وتسمى خبر الواحد.(١)

والسنة المتواترة قطعية الورود عن الرسول لأن تواتر النقل يفيد الجزم والقطع بصحة الخبر كما قدمنا، والسنة المشهورة قطعية الورود عن الصحابى أو الصحابة الذين تلقوها عن الرسول لتواتر النقل عنهم ولكنها ليست قطعية الورود عن الرسول، لأن أول من تلقى عنه ليس جمع التواتر، ولهذا جعلها فقهاء الحنفية فى حكم السنة المتواترة، فيخصص بها عام القرآن ويقيد بها مطلقة لأنها مقطوع ورودها عن الصحابى، والصحابى حجة وثقة فى نقله عن الرسول، فمن أجل هذا كانت مرتبتها فى مذهب الحنفية قريبة من اليقين.

وسنة الأحاد ظنيه الورود عن الرسول، لأن سندها لا يفيد القطع، ولقد كان أبو حنيفة وأصحابه والحنفية من بعدهم يشترطون فى الراوى مااشترطه سائر الفقهاء وجميع المحدثين وهو العدالة والضبط وقد شددوا فى تفسير معنى الضبط بأكثر مما شدد غيرهم ويجعلون معناه الكامل شاملاً لفقه الراوى، ولكنهم لا يعتبرون فقه الراوى شرطاً لقبول روايته، بل أساساً فى الترجيح فإذا تعارضت روايتان: إحداهما من راو فقيه، والأخرى من راوٍ غير فقيه يؤثرون رواية الفقيه لأنه أضبط وأشد تحرياً وأكثر فهماً للدين.

وقد وجدنا الترجيح بفقه الراوى يجئ على لسان أبى حنيفة فى مجادلته مع الأوزاعى، ولننقل المناظرة كما رويت.

" روى سفيان بن عيينه، قال: اجتمع أبو حنيفة والأوزاعى فى دار الخياطين بمكة، فقال الأوزاعى لأبى حنيفة: مالكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع وعند الرفع منه؟ فقال أبو حنيفة: لأجل أنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة وعند الركوع، وعند الرفع، قال: كيف؟!! وقد حدثنى الزهرى عن سالم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يرفع، فقال أبو حنيفة: حدثنا حماد،عن إبراهيم عن علقمة

---

١. عبدالوهاب خلاف: علم أصول الفقه - ص٤٢.

والأسود، عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة، ولا يعود إلى شئ من ذلك، فقال الأوزاعي: أحدثك عن الزهري عن سالم، عن أبيه، وتقول حدثنا حماد عن إبراهيم، فقال أبو حنيفة: كان حماد أفقه من الزهري، وكان إبراهيم أفقه من سالم، وعلقمة ليس بدون ابن عمر، وإن كان لابن عمر صحبة، فالأسود له فضل كثير ...". [1]

ولقد رويت العبارة الأخيرة برواية أخرى وهي إبراهيم أفقه من سالم ولولا فضل الصحبة لقلت إن علقمة أفقه من عبدالله بن عمر، وعبدالله هو عبدالله هو ابن مسعود، أي أن مكانته هي التي لا يساميه أحد من المذكورين فيها.وهذه المناظرة تدل على أن أبا حنيفة كان يلاحظ فقه الراوي عند الترجيح فهو يقدم رواية الأفقه على من دونه فقهاً فيرجح حديث الفقهاء من الرواة على حديث غيرهم.

وخلاصة القول في نظر أبي حنيفة إلى أخبار الآحاد أنها إن لم تعارض قياساً قبلها، وإن عارضت قياساً علته مستنبطة من أصل ظني أو كان استنباطها ظنياً ولو من أصل قطعي، أو كانت مستنبطة من أصل قطعي وكانت قطعية ولكن تطبيقها في الفروع ظني، تقدم الأخبار أيضا على القياس لأنها على النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبين الشرع ومفصل أحكامه، وأما إذا عارضت أخبار الآحاد أصلاً عاماً من أصول الشرع ثبتت قطعيته وكان تطبيقه على الفرع قطعياً، فأبو حنيفة يضعف بذلك خبر الآحاد، وينفي نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحكم بالقاعدة العامة التي لا شبهة فيها.

هذه نظرات أبي حنيفة إلى السنة قد جعلها بعد الكتاب عماد فقهه يتجه إليها إذا ثبتت برواية الثقات الذين إطمأن اليهم، ولم تعتره ريبة في أقوالهم يقدم السنة على القياس ويؤخر آحادها عن عمومات القرآن، وإذا تعارضت المرويات مع قاعدة من القواعد المقررة في الدين التي أجمع عليها المسلمون كان ذلك طعناً فيها وترد لشذوذها عن المقررات في الشريعة والأمور الثابتة فيها، ولم يكن هو بدعاً في ذلك بل معه جمهور الفقهاء، ومنهم شيخ فقهاء الحجاز مالك رضي الله عنه، ثم هو يقبل أخبار الآحاد والمرسلات ما دامت لا تناقض الكتاب أو السنة أو مقررات الشريعة.

---

١. الموفق: المناقب، ج١، ١٣١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣- أقوال الصحابة:

لقد رسم أبو حنيفة منهاجاً للاستنباط، جامعاً لأنواع الاجتهاد فقد روى عنه أنه قال: ''أخذ بكتاب الله فإن لم أجد فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن لم أجد فى كتاب الله تعالى ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذت بقول الصحابة، أخذ بقول من شئت وأدع من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم... إلى قول غيرهم، فإذا ما انتهى الأمر أو جاء إلى إبراهيم، والشعبى وابن سيرين والحسن والعطاء وسعيد بن الحسيب - وعد رجالاً- فقوم اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا''.

وهذا الكلام يدل على أنه يأخذ بقول الصحابى، ويعتبره واجب الاتباع، وأنه إذا اجتهد فى موضوع كانت للصحابة آراء فيه، يختار من هذه الآراء، ولا يخرج عن أرائهم إلى غيرها وأنه إذا لم يكن له رأى اجتهد ولا يتبع رأى التابعى، فهو لا يقلد التابعى، ولكن يقلد الصحابى.

وقد جاء فى كتاب تأسيس النظر للإمام أبى زيد عبدالله بن عمر الدبوسى الحنفى عن تلك القاعدة وهى تقليد الصحابى يقول ''إن قول الصحابة مقدم على القياس إذا لم يخالفه أحد من نظرائه لأنه لا يجوز أن يقال أنه قاله عن طريق القياس لأن القياس يخالفه ولا يجوز أن يقال أنه قاله جزافا، فالظاهر أنه قاله سماعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعند الإمام القرشى أبى عبدالله الشافعى القياس مقدم لأنه لا يرى بتقليد الصحابى ولا الأخذ برأيه.[١]

وعلى هذه مسائل منها ما قاله علماؤنا بوجوب الكفارة بالبراءة عن الإسلام أخذنا فى ذلك بقول عمر رضى الله عنه وبقول عائشة رضى الله عنها وعن أبيها، وعند الإمام القرشى أبى عبدالله الشافعى لا يجب واخذ فيه بالقياس، ومنها إذا اشترى ما باع بأقل مما باع قبل نقد الثمن لا يجوز أخذنا بحديث عائشة رضى الله عنها، وحديث زيد بن أرقم فحكمنا بفساد البيع وتركنا القياس، وعند الإمام أبى عبدالله الشافعى البيع جائز وأخذ فيه بالقياس.[٢]

وجاء أيضا عن الشهاب أحمد بن أدريس القرافى فى شرح تنقيح الفصول:'' انعقد الإجماع على أن من أسلم فله أن يقلد من شاء من العلماء بغير حجر، وأجمع الصحابة رضوان الله عليهم على أن من استفتى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما أو قلدهما فله أن يستفتى أبا هريرة ومعاذ بن جبل وغيرهما، ويعمل بقولهما من غير نكير فمن ادعى رفع هذين الإجماعين فعليه الدليل''.[٣] حيث أن من حكم هذين الإجماعين أن يكون الناس فى سعة

---

١. الدبوسى: أبى زيد عبدالله بن عمر بن عيسى - تأسيس النظر، المطبعة الأدبية، القاهرة، ص٥١.
٢. المرجع السابق - نفس الصفحة.
٣. محمد زاهد الكوثرى: إحقاق الحق بإبطال الباطل فى مغيث الخلق - ص٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من اتباع أى واحد من الآئمة المتبوعين لأسباب ترجيح تلوح لهم من غير وجوب اتباع واحد معين على كافة المسلمين.

من هنا نستطيع أن نقرر أن تقليد الصحابة والأخذ بآرائهم أمر فيه خلاف، وعندما نتجه إلى الفروع نجد فخر الإسلام البزدوى الذى عنى باستخلاص الأصول التى بنى عليها الاستنباط الحنفى يقرر أن تلك القاعدة، وهى تقليد الصحابة موضع خلاف فيقول "قال أبوسعيد البردعى: تقليد الصحابى واجب يترك به القياس، وقال الكرخى: لايجب تقليده إلا فيما لا يترك بالقياس، وقد أثبت فخر الإسلام أن كلا من أبى حنيفة وأصحابه قد ثبت عنهم أنهم خالفوا رأى الصحابة فقد خالف أبو حنيفة وأبو يوسف فتوى جابر وابن مسعود فى طلاق الحامل للسنة، فقرر أنها تطلق ثلاثاً، ويكون ذلك من طلاق السنة قياساً على الآيسة والصغيرة.[١]

وهذا البيان يستفاد منه أن أبا حنيفة كان يخالف الصحابة فيما للرأى فيه مجال، أما ما لا مجال فيه للرأى، بل لا يثبت إلا بالنقل كالمدد، فإنه كان يقلدهم، ولا يخالفهم، ولذلك أخذ فى مدد الحيض وهى أن أقله ثلاثة وأكثره عشرة بقول أنس وعثمان بن أبى العاص ومثل ذلك ما يثبت أن طريق الصحابى فى معرفته هو السماع، لا مجرد الاجتهاد، مثل قول عائشة رضى الله عنها لمن باعت إلى زيد بن أرقم بثمانمائة درهم ثم اشترت منه قبل تسليم الثمن بستمائة درهم: ''بئسما شريت واشتريت، بلغى زيد بن أرقم أن الله تعالى أبطل جهاده وحجه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لم يتب'' فأتاها زيد بن أرقم معتذراً،فقلت قوله تعالى"**فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ**".[٢]

فإن إبطال الحج والجهاد بسبب مثل ذلك البيع لا يمكن أن يثبت إلا سماعاً وكلام الصحابى فيما لا مجال فيه للرأى لا يكون إلا عن سماع.

خلاصة القول أن ما يستخرجه الكرخى من الفروع ''أن فتوى الصحابة تكون ملزمة فى الأمور التى لا يجلوها القياس، وليست كذلك فيما يمكن أن يتقرر بالقياس''.[٣]

---

١. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره، ص٢٦٨.

٢. سورة البقرة: آية رقم ٢٧٥.

٣. محمد إقبال: تجديد التفكير الدينى فى الإسلام، ص٢٠٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإذا كانت الفتوى للرأى فيها مجال لا يصح تقليده فيها على رأى أبى حنيفة، ومـــالا مجال للرأى فيه يجب اعتبار قوله فيه لأن مثل ذلك لا يكون إلا عن نقل فاحترامه حينئذ مـــن قبيل الأخذ بالسنة.

ولكن ذلك يخالف المنقول عنه رضى الله عنه عندما قال '' أخذ بكتاب الله فإن لم أجد فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن لم اجد أخذت بقول الصحابة'' وبأيهما يمكن الأخـذ به، أبما صرح به أم بما استنبط من فروع له لاشك أننا نأخذ بما صرح به، لأن الفروع التـى رويت عنه مخالفة لما صرح به فى الظاهر يمكن ان تخرج تخريجاً يتفق مع صريح قوله، بل لا تعارض فى الواقع ونفس الأمر لأنه لكى يثبت التعارضُ يجب أن يثبت مدعيه أن أبا حنيفة كان يعلم بفتوى الصحابى، وعدل عنها إلى القياس، وأن يثبت أن الصحابى لا مخالف له مـــن بين الصحابة، وإن شيئاً من ذلك لم يثبته فخر الإسلام والدبوسى والكرخى.

ولقد ساق الإمام السرخسى طائفة من الأدلة تثبت وجوب اتباع قول الصحابى فى كـل الأحوال، حيث لا نص يعارضه، وهذه الأدلة تقوم على أصل من النقل وعلـــى وجـــوه مـــن العقل. أما النقل فقولـــه تعـــالى: ''**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحسَانٍ**''.[1]

فالله تعالى مدح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصـــار، ومدح الذين اتبعوهم والتعبير بالوصول يفيد أن الاتباع هو سبب المدح.[2]ولقد قال صلـــى الله عليه وسلم '' أنا أمان لأصحابى، وأصحابى أمان لأمتى''وأما العقل ضمن وجوه عده:

١-أن الصحابة أقرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من سائر الناس وهم الذيـــن شـــاهدوا التنزيل وعاينوا مواضعه، ولهم من العقل والأخلاص وحسن الفهم ما هم به أقـــدر علـــى معرفة مرامى الشرع الشريف وغاياته.

٢-أن احتمال أن تكون آراؤهم سنة نبوية إحتمال قريب، لأنهم كثيراً مـــا كـــانوا يذكـــرون الأحكام التى بينها النبى صلى الله عليه وسلم من غير ان يسندوها إليه صلـــى الله عليـــه وسلم لأن أحداً لم يسألهم عن ذلك.

---

١. سورة التوبة: آية رقم ١٠٠.

٢.الإمام أبو زهرة: أبو حليفة حياته وعصره، ص٣٦٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣-أنهم إن أثر عنهم رأى أساسه القياس، ولنا رأى آخر له من القياس وجه فالاحتياط اتباع رأيهم، يقول النبى صلى الله عليه وسلم '' خير القرون قرنى الذى بعثت فيهم''.

هذه بعض الأدلة التى سبقت لإثبات أن قول الصحابى حجة وهو مقدم على القياس، وقد قلنا إن ذلك رأى أبى حنيفة، كما هو صريح المنقول عنه، كما يتفق فى كثير من الفروع الفقهية المأثورة عنه والمدونة فى بطون كتب المذهب الحنفى.

٤- الإجماع:

التعريف الذى نتلاقى فيه أقوال أكثر العلماء الذين ارتضوا الإجماع أصلاً من أصول الفقه الإسلامى هو '' اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين فى عصر من العصور بعد وفاة الرسول على حكم شرعى فى واقعة''.[١]

والإجماع عندهم لا يكون إلا إذا توافرت فيه هذه الأمور.

١-أن يكون الاتفاق من المجتهدين، أما العوام ومن لم يبلغ درجة الاجتهاد فلا اعتبار باتفاقهم ولا بخلافهم، لأنهم ليسوا أهلاً للنظر فى مدارك الأحكام الشرعية.[٢]

٢-أن يكون الاتفاق من جميع المجتهدين الذين يتحقق الإجماع باتفاقهم أما إذا اتفق أكثر المجتهدين على حكم من الأحكام فإنه لا يكون إجماعا عند الجمهور مهما قل عدد المخالفين، لأن الحق يحتمل أن يكون فى جانب المخالف للأكثر ولو كان واحداً.

٣-أن يكون المجتهدون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يعد اتفاق المجتهدين من أمه غيره من الأنبياء السابقين إجماعاً شرعياً وذلك لقيام الأدلة على اختصاص الأمة المحمدية بالعصمة من الخطأ عند إتفاقهم.

٤- أن يكون الإجماع بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى هذا لا وجود للإجماع ولا اعتبار به فى عصره عليه السلام، لأن الرسول إن وافق الصحابة على الحكم الذى اتفقوا عليه كان الحكم ثابتا بالسنة، وإن خالفهم سقط اتفاقهم ولا يكون اتفاقهم حكماً شرعياً لمخالفته السنة.

٥-أن يكون الحكم الذى اتفق عليه جميع المجتهدين حكماً شرعياً كالوجوب أو الحرمة أو الصحة والفساد أوغيرها، وعلى هذا لا يكون الاتفاق على الأحكام اللغوية أو العقلية إجماعاً شرعياً.

---

١. عبدالوهاب خلاف: علم أصول الفقه - ص٤٥.

٢. د.محمود عبدالله العكازى، مباحث فى علم أصول الفقه، ص٤٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى الرسالة للإمام الشافعى : أخبرنا سفيان عن عبدالله بن أبى لبيد عن ابن سليمان ابن يسار عن أبيه '' أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا كمقامى هذا فيكم فقال أكرموا أصحابى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى أن الرجل ليحلف ولا يستحلف ويشهد ولا يستشهد ألا فمن سره بحبحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الفذ وهو مع الاثنين أبعد ولايخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهم ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن''.[١]

وهل كان أبو حنيفة يعتبر الإجماع أصلا من أصول فقهه يبنى عليه اجتهاده؟ لقد أجاب عن ذلك علماء المذهب الحنفى بالإيجاب وفرعوا فيه الفروع، وبينوا أن أبا حنيفة وأصحابه كانوا يأخذون بالاجماع السكوتى[٢].ويعتبرون من مخالفة الاجماع، أن يكون العلماء قد اختلفوا فى أمر على رأيين اثنين، ولم يقل أحد فى عصر من العصور غيرهما، فيجئ عالم بعد ذلك ويأتى برأى يغايرهما تمام المغايرة، ولا يعتبر موافقاً لهما، أو لأحدهما بأى وجه من وجوه الموافقة.

وقد جاء فى المناقب للمكى عبارة تفيد أنه كان يأخذ بالاجماع[٣]، كما كان يأخذ بالسنة والكتاب، ثم آراء الصحابة، والقياس وهى '' سمعت عبدالله بن المبارك قال: سئل أبو حنيفة عن المسح فقال: ما مسحنا حتى جاءنا مثل ضوء النهار''.

وجاء فى المناقب أيضا '' كان أبو حنيفة شديد الاتباع لما كان عليه الناس ببلده''.

وعن يحيى بن نصر بن الحاجب قال كان أبو حنيفة يفضل أبا بكر وعمر ويحب علياً وعثمان وكان يدين بالأقدار كلها ولا يتكلم فى الله بشئ وكان يمسح على الخفين وكان من أعلم الناس فى زمانه وأورعهم وأتقاهم.

---

١. محمد بن أدريس الشافعى: الرسالة، تحقيق محمد سيد كيلانى- الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م - ص٢٠٣.

٢.الاجماع السكوتى: أن يبدى بعض المجتهدين رأيه فى مسألة من المسائل ويعلم به باقى المجتهدين فى عصره، فيسكتون ولا يكون منهم اعتراف ولا إنكار صراحة فى تلك المسألة.

شرط الاجماع السكوتى: ويشترط لصحة العمل بالإجماع السكوتى ما يلى:

أ - أن تكون المسألة من المسائل التى يجوز فيها الاجتهاد، وهى أن يكون الدليل الوارد فيها ظنياً.

ب- أن يكون السكوت مجرداً عن علاقة تدل على الموافقة أو المخالفة، فإن وجد ما يدل على الموافقة على الحكم لم يكن إجماعا سكوتيا، بل يكون إجماعاً صريحاً، وإن وجد ما يدل على المخالفة لم يتحقق الإجماع أصلاً.

ج- أن يكون ذلك السكوت بعد مضى فترة كافية للبحث فى المسألة وتكوين الرأى عادة: العكازى 'مباحث فى علم أصول الفقه' ص٤٧.

٣. المكى: مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة - ج١/٨٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فمن خلال هذه الروايات يتبين لنا طرائق استنباطه وتثبت أنه كان يتبع ما يجمع عليه فقهاء بلده، وكان يسير عند عدم النص على ما عليه تعامل الناس، وهذا يثبت بلا ريب أنه كان بالأولى يأخذ بإجماع المجتهدين عامة، فمن يكون شديد الاتباع لفقهاء بلده أحرى أن يكون شديد الاتباع لما يجمع عليه العلماء.

ولقد ذكر علماء الأصول فى المذهب الحنفى أن الإجماع حجة قطعيه، وقال بعض العلماء أنه حجة ظنيه.(١)

وجاء فى '' أصول فى علم الأصول'' أن الإجماع ثلاثة أقسام:(٢)

١-إجماع الصحابه رضى الله عنهم على حكم الحادثه نصا وإجماعهم بنص البعض وسكوت الباقين، ويعتبر ذلك بمنزلة آية من كتاب الله تعالى.

٢-ثم إجماع من بعد فيما لم يوجد فيه قول السلف فيكون كالحديث المشهور.

٣-ثم الإجماع على حد أقوال السلف هو بمنزلة الصحيح من الآحاد وهذا كله إذا نقل خبر الإجماع بطريقه التواتر، أما إذا نقل خبر الإجماع بطريقة الآحاد، فإنه لا يوجب يقيناً، ولو كان إجماع الصحابة لأن إجماع الصحابة وإن أفاد القطع فى ذاته فإن نقله بطريقه الآحاد جعل الظن يحيط بالنقل وصار كحديث الآحاد، لأن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذاتها تفيد القطع فى الدين، ولكن الظنيه فى أحاديث الآحاد جاءت فى نقلها، والإجماع فى كل حال مقدم على القياس.

ويقول فخر الإسلام البزدوى: ''من أنكر الإجماع فقد أبطل دينه، لأن مدار أصول الدين كلها ومرجعها إلى إجماع المسلمين''.

٥- القياس:

هو استخدام التعليل القائم على تشابه بين الحالات فى التشريع.(٣)

---

١. الإجماع حجة قطعية: وهو الإجماع الصريح بمعنى أن حكمه مقطوع به ولا سبيل إلى الحكم فى واقعته بخلافه، ولا مجال للاجتهاد فى واقعة بعد انعقاد إجماع صريح على حكم شرعى فيها كعدد الصلوات وركعاتها وفرض الحجج والصيام. أما الإجماع حجة ظنية ، أى ظنى الدلالة على حكمه وهو الاجماع السكوتى بمعنى أن حكمه مظنون ظناً راجحاً ولا يخرج الواقعة عن أن تكون مجالاً للاجتهاد لأنه عبارة عن رأى جماعة من المجتهدين لا جميعهم، عبد الوهاب خلاف: 'علم أصول الفقه" ص٥٢.

٢. الشاسى : اسحق بن ابراهيم: أصول فى علم الأصول، مطبعة المجتبائية بدهلى – الهند – ١٣٠٣هـ – ص٩٠.

٣. محمد إقبال: تجديد التفكير الدينى فى الإسلام – ص٢٠٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيميه هل يعارض القياس الصحيح النص أم لا؟ فأجاب أصل هذا أن تعلم أن لفظ القياس "لفظ مجمل يدخل فيه القياس الصحيح والقياس الفاسد، فالقياس الصحيح هو الذى وردت به الشريعة،وهو الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين، الأول قياس الطرد والثانى قياس العكس، وهو من العدل الذى بعث الله به رسوله.(١)

وقد استدل مثبتو القياس بالقران، وبالسنة، وبأقوال الصحابة، وأفعالهم وبالمعقول.

أما القران فأظهر من استدلوا به من اياته.

وهى قوله تعالى فى سورة النساء"**يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمرِ مِنكُم فَإِن تَنَـزَعتُم فِى شَىءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُم تُؤمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الأَخِرِ ذَلِكَ خَيرٌ وَ أَحسَنُ تَأوِيلاً**".(٢)

ووجه الاستدلال بهذه الآية أن الله سبحانه أمر المومنين إن تنازعوا واختلفوا فى شئ، ليس لله ولا لرسوله ولا لأولى الأمر منهم فيه حكم، أن يردوه إلى الله والرسول، ورده وإرجاعه إلى الله وإلى الرسول يشمل كل ما يصدق عليه أنه رد إليهما، ولا شك أن إلحاق مالا نص فيه بما فيه نص لتساويهما فى علة حكم النص، من رد ما لا نص فيه إلى الله والرسول، لأن فيه متابعة لله ولرسوله فى حكمه.(٣)

وقوله تعالى فى سورة يسّ "**قُل يُحيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**" جواباً لمن قال: يحيى العظام وهى رميم؟ ووجه الاستدلال بهذه الآيه أن الله سبحانه وتعالى استدل على ما أنكره منكر والبعث بالقياس، فإن الله سبحانه وتعالى قاس إعادة المخلوقات بعد فنائها على بدء خلقها لإقناع الجاحدين بأن من قدر على بدء خلق الشئ قادر على أن يعيده بل هذا أهون عليه.

وأما السنة فأظهر ما استدلوا منها دليلان:

الأول : حديث معاذ بن جبل أن رسول الله لما أراد أن يبعثه إلى اليمن، قال له: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بكتاب الله، فإن لم أجد فبسنة رسول الله، فإن لم أجد أجتهد رأيى ولا آلو. فضرب رسول الله على صدره وقال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله.

---

١. ابن تيمية: القياس فى الشرع الإسلامى - المطبعة السلفية - القاهرة - ١٣٤٦هـ - ص٦.

٢. سورة النساء: آية رقم ٥٩.

٣. عبدالوهاب خلاف: علم أصول الفقه - ص٥٤،٥٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ووجه الاستدلال بهذا الحديث أن رسول الله أقر معاذاً على أن يجتهد إذا لم يجد نصاً يقضى به فى الكتاب والسنة، والاجتهاد بذل الجهد للوصول إلى الحكم وهو يشمل القياس لأنه نوع من الاجتهاد والاستدلال، والرسول لم يقره على نوع من الاستدلال دون نوع، ويقول جلال الدين السيوطى ''لو كان القرآن كله محكماً لا يحتاج إلى نظر، لاستوت منازل الحق، ولم يظهر فضل العالم على غيره''.(١)

والثانى : ما ثبت فى صحاح السنة من أن رسول الله فى كثير من الوقائع التى عرضت عليه ولم يوح إليه بحكمها استدل على حكمها بطريق القياس، وفعل الرسول فى هذا الأمر العام تشريع لأمته، ولم يقم دليل على اختصاصه به، فالقياس فيم لانص فيه من سنن الرسول، وللمسلمين به أسوة.

وأما أفعال الصحابة وأقوالهم فهى ناطقه بأن القياس حجة شرعية فقد كانوا يجتهدون فى الوقائع التى لا نص فيها، ويقيسون بعض الأحكام على بعض ويعتبرون النظير بنظيره، قاسوا الخلافة على إمامة الصلاة، وبايعوا أبا بكر بها وبينوا أساس القياس بقولهم: رضيه رسول الله لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا وقاسوا خليفة الرسول على الرسول.

وقد اجتهد الصحابة فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم لعمرو بن العاص أحكم فى بعض القضايا فقال أأجتهد وأنت حاضر؟ فقال: نعم إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر، وقال لعقبة بن عامر ولرجل من الصحابة اجتهدا فإن أصبتما فلكما عشر حسنات وإن أخطأتما فلكما حسنة وقد حكم عليه الصلاة والسلام سعداً فى بنى قريظة.(٢)

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مجتهدين فى النوازل ويقيسون بعض الأحكام على بعض.

قال أسد بن موسى: ثنا شعبة عن زبيد اليامى(٣) عن طلحة بن مصرف عن مرة الطبيب عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى الجنة '' كل قوم على بينه من أمرهم، ومصلحة من أنفسهم يزرون على من سواهم، ويعرف الحق بالمقايسة عند ذوى الألباب''.(٤)

---

١. جلال الدين السيوطى: معترك الأقران فى إعجاز القرآن، تحقيق على محمد البجاوى- ط. دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٦٩م - ج١/١٥٨.

٢. د/طه جابر فياض العلوانى: الاجتهاد والتقليد فى الإسلام - مطبعة دار الإنصار بالقاهرة ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م - ص٤٨.

٣. اليامى: يقال الأيامى كما فى خلاصة التذهيب.

٤. الألباب: الأسباب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واجتهد الصحابيان اللذان خرجا فى سفر، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فصليا، ثم وجد الماء فى الوقت، فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فصوبهما صلى الله عليه وسلم، وقال الذى لم يعد أصبت السنة وأجزأتك صلاتك، وقال للآخر لك الأجر مرتين.

وقال المزنى: الفقهاء من عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا وهلم جراً استعملوا المقاييس فى الفقه فى جميع الأحكام فى أمر دينهم، قال وأجمعوا بأن نظير الحق حق ونظير الباطل باطل، فلا يجوز لأحد إنكار القياس لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها.[١]

وإن اجتهاد أبى حنيفة ومسلكه فى فهم الأحاديث، مع البيئة التى عاش فيها من شأنه أن يجعله يكثر من القياس، ويفرع الفروع على مقتضاه ذلك لأن أبا حنيفة فى اجتهاده ما كان ليقف عند بحث أحكام المسائل التى تقع بل يتسع فى استنباطه، فيبحث عن أحكام المسائل التى لم تقع ويتصور وقوعها ويعرف الخروج منه إذا وقع.

يقول الكرخى إن الاجتهاد إذا لم يفسح باجتهاد مثله يفسح بالنص فالنص يحتاج إلى تعليل بحكم غيره لا بحكم نفسه، كذلك الأصل أنه يفرق بين علة الحكم وحكمته، فإن علته موجبة وحكمته غير موجبه، ومن مسائلة أن السفرعلة القصر وحكمته المشقة ثم السفر يثبت القصر وإن لم يلحقه مشقة فوجوب العلة أوجب وجوب الحكم.[٢]

لذلك كان الإمام أبو حنيفة يكثر من القياس وكان يستنبط مما بين يديه من أحاديث ونصوص قرآنية عللاً عامة للأحكام ويفرع عليها الفروع، ويعتبر تلك العلل قواعد يعرض عليها كل ما يراد من قضية لم يرد فيها نص، كذلك يعتبر أبو حنيفة الأصل الذى قام عليه القياس هو أن أحكام الشارع وردت لصلاح الناس فى دنياهم وآخرتهم، وعلى هذا نقرر أن أبا حنيفة كان يتفهم مرامى النصوص وغايتها وأسبابها وعللها، وعد بسبب ذلك أحسن أهل عصره فهماً للحديث، لأنه ما كان يقف عند ظاهر النص بل يسبر غوره ليعرف علله الشرعية.

وقال ابن القيم فى أعلام الموقعين: أصحاب أبى حنيفة رحمه الله تعالى مجمعون على أن مذهب أبى حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأى،[٣] فقد منع قطع يد

---

١. ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين - تحقيق د/عبدالرحمن الوكيل - دار الكتب الحديثة- القاهرة - ص٢٣٠.

٢. أبى الحسن الكرخى: رسالة فى الأصول التى عليها مدار فروع الحنفية - المطبعة الأدبية - القاهرة - ص٨٥.

٣. ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عند رب العالمين- ص٨٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السارق بسرقة أقل من عشرة دراهم والحديث فيه ضعيف، وجعل أكثر الحيض عشرة أيام والحديث فيه ضعيف، فتقديم الحديث الضعيف وآثار الصحابة على القياس والرأى قوله وقول الإمام أحمد.

وقد إشترط علماء الحنفية على صحة القياس:

١-إحداها أن لا يكون فى مقابلة النص.

٢-أن لا يتضمن تغيير حكم من أحكام النص.

٣-أن لا يكون المعد حكما لا يعقل معناه.

٤-أن يقع التعليل لحكم شرعى لا لأمر لغوى.

٥-أن لا يكون الفرع منصوصاً عليه.(١)

٦- *الاستحسان:*

الاستحسان لا يقول فيه إلا عالم بالأخبار عاقل للتشبيه عليها، وإذا كان هكذا كان على العالم أن لا يقول إلا من جهة العلم وجهة العلم الخبر اللازم بالقياس بالدلائل على الصواب حتى يكون صاحب العلم أبداً متبعاً خبرا وطالب الخبر بالقياس كما يكون متبع البيت بالعيان طالباً قصده بالاستدلال بالأعلام مجتهداً. (٢)

ولا يقيس إلا من جمع الآلة التى له القياس بها وهى العلم بأحكام كتاب الله فرضه أدبه وناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه وإرشاده ويقول على ما احتمل التأويل منه بسنه رسول الله فإذا لم يجد سنة فإجماع المسلمين فإن لم يكن إجماع فبالقياس ولا يكون لأحد أن قيس حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم لسان العرب ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل وحتى يفرق بين المشتبه ولا عجل بالقول دون التثبيت.

وقد أكثر أبو حنيفة من الاستحسان، وكان فيه لا يجارى، حتى لقد قال محمد رضى الله عنه"إن أصحابه كانوا ينازعونه المقاييس، فإذا قال استحسن لم يلحق به أحد، ولقد كان ليس ما استقام له القياس ولم يقبح، فإذا قبح القياس إستحسن، ولاحظ تعامل الناس"(٢)

. الشاسى: أصول فى علم الأصول - ص٩٣.

. الإمام الشافعى: الرسالة - ص٢١٩.

. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص٣٠٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد كانت الأدلة التى تتعارض مع بعضها موضع نظر أبى حنيفة رضى الله عنه، فقد رأيناه يترك أقيسته إذا قبحت، ولم تتفق مع تعامل الناس، وقد سمى العلماء ذلك الترك لهذه العلل المطردة التى يرى قبحاً فى تطبيقها فى بعض المسائل استحساناً فهو أصل للاستنباط عند أبى حنيفة.

إذن الاستحسان عند الإمام رحمه الله تعالى ليس اتباعاً للهوى، ولا حكماً بالغرض، لكنه اختيار أقوى الدليلين فى حادثة معينه، وقد قال الإمام الشافعى رحمه الله تعالى فى نظائر هذا: أستحب ذلك وأى فرق بين من يقول استحسن كذا وبين من يقول استحبه؟ بل الاستحسان أفضل اللغتين وأقرب إلى موافقة عبارة الشرع فى هذا المراد.(١)

٧- العرف:

هو ما استقر فى النفوس من جهة العقول، وتلقته الطباع السليمة بالقبول،(٣) والأصل فى اعتبار العرف دليلاً شرعياً قول ابن مسعود رضى الله عنه: "ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن". وإنما يكون العرف دليلاً حيث لا دليل شرعى من كتاب وسنة.

والعرف نوعان: عرف صحيح وعرف فاسد.

فالعرف الصحيح هو ما تعارفه الناس، ولا يخالف دليلاً شرعياً ولا يحل محرماً ولا يبطل واجباً، كتعارف الناس تقسيم المهر. إلى مقدم ومؤخر، وتعارفهم أن الزوجة لا تزف إلى زوجها إلا إذا قبضت جزءاً من مهرها، وتعارفهم أن ما يقدمه الخاطب إلى خطيبته من حلى وثياب هو هدية لا من المهر.

وأما العرف الفاسد فهو ما تعارفه الناس ولكنه يخالف الشرع أو يحل المحرم أو يبطل الواجب، مثل تعارف الناس كثيراً من المنكرات فى الموالد والمآتم وتعارفهم أكل الربا وعقود المقامرة.

والعرف الصحيح يجب مراعاته فى التشريع والقضاء وعلى المجتهد مراعاته فى تشريعه لأن ما تعارفه الناس وما ساروا عليه صار من حاجاتهم.

---

١. السرخسى: أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل - المبسوط - مكتبه دار الكتاب - القاهرة - ١٩٥٢ - ج٢/٢٠١.

٢. الإمام أبو حامد الغزالى: المستصفى من علم الأصول - مطبعة بولاق - القاهرة - ١٣٢٥هـ - ج١/٢٢٠-٢٢١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعرف فى الشرع له اعتبار، والإمام مالك بنى كثيراً من أحكامه على عمل أهل المدينه، وأبو حنيفة وأصحابه اختلفوا فى أحكام بناء على اختلاف أعرافهم، والشافعى لما هبط إلى مصر غير بعض الأحكام التى كان قد ذهب اليها وهو فى بغداد لتغير العرف.

وفى فقه الحنفية أحكام كثيرة مبنية على العرف، منها إذا اختلف المتداعيان ولا بينة لأحدهما فالقول لمن يشهد له العرف، وإذا لم يتفق الزوجان على المقدم والمؤخر من المهر فالحكم هو العرف، ومن حلف لا ياكل لحماً فأكل سمكاً لا يحنث بناء على العرف، وقد ألف العلامة المرحوم ابن عابدين رسالة سماها: "نشر العرف فيما بنى من الاحكام على العرف "ومن العبارات المشهورة: المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً والثابت بالعرف كالثابت بالنص.[1]

ولقد أخذ أبو حنيفة رضى الله عنه بهذا المنهج الذى اعتبر العرف العام دليلاً حيث لا نص، بل مخصصاً لعموم الآثار الظنية التى تكون بعض صورها منافية للعرف العام الذى يتطابق عليه المسلمون فى كل الأقطار الإسلامية، فكان فى مذهبه مرونة وقوة، فلم يقف المجتهدون فيه أمام ما استنبط السابقون جامدين، بل أخضعوه للعرف ما دام لا نص فيه، بمعنى أنه إذا ثبت أن الحكم فى مذهب أبى حنيفة بمقتضى المروى الصحيح فيه مخالف للعرف العام، ولم يكن معتمداً على نص صحيح من الكتاب والسنة، صح للمفتى على مذهب أبى حنيفة أن يخالف المنصوص عليه فى المذهب، ولا يعتبر خارجاً فى فتياه عن نطاق ذلك المذهب الجليل، ولقد قال ابن عابدين فى ذلك المقام:

"إن ظاهر الرواية قد يكون مبنياً على صريح النص من الكتاب أو السنة أو الإجماع، ولا اعتبار للعرف المخالف للنص، لأن العرف قد يكون على باطل كما قال ابن الهمام" [2]

٨- موقفه من النقل والعقل:

إن الله سبحانه وتعالى- قد كرم بنى آدم بالعقل، وجعله مناطا للتكليف وأثنى على اولى الألباب السليمة، وأصحاب العقول النيرة، وليس ثمة عقيدة تقوم على احترام العقل الإنسانى وتعتز به وتعتمد عليه فى ترسيخها كالعقيدة الإسلامية.

---

١. عبدالوهاب خلاف: علم أصول الفقه - ص٨٩، ٩٠.

٢. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - ص٣١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وليس ثمه كتاب أطاق سراح العقل، وغالى بقيمته وكرامته كالقرآن الكريم كتاب الإسلام، بل إن القرآن ليكثر فى إستثارة العقل ليؤدى دوره الذى خلقه الله له.

ولقد أبرز الإسلام مظاهر وظائف العقل وتكريمه واهتمامه به فى مواضع عدة منها: قيام الدعوة إلى الإيمان على الإقناع العقلى ووجهها إلى التفكر والتدبر في كتابه.

قال تعالى "كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"[١] وكذلك الآيات الدالة على التفكر والتدبر فى الدنيا وملكوت السموات والأرض، وينعى على المقلدين التقليد الأعمى الذين لا يعملون أذهانهم ويجمدونها: كأنه لا عقول لهم، ويعيشون على ذلك.[٢]

قال الله-تعالى- "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ "[٣]

ومدح عباده العلماء الذين يعملون عقولهم، ويغذونها بأنواع المعارف التى تزيدهم من الله قربة، وخشوعا، فقال فى محكم كتابه "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُا"[٤]

وقد كان الإمام أبو حنيفة من أولئك العلماء الذين يعملون عقولهم مع عدم مخالفة النص، وكما قلنا سابقاً أجمع أصحاب أبى حنيفة على أن مذهب أبى حنيفة أن ضعيف الحديث أولى عنده من القياس والرأى.

وليس الرأى الذى كان عليه أبو حنيفة رحمه الله تعالى رد النصوص، لكن اعتبارها وفهمها وكان فى هذا الباب لا يجارى، وقد قال رحمه الله فى الذى أكل أو شرب ناسياً فى نهار رمضان لولا الأثر لقلت بالقياس أى أنه يفطر، ذلك لوجود صورة الإفطار منه لا قصده.

وقال ابن حجر فى مقدمة الفتح: ومن ثم لم يقبل جرح الجارحين فى الإمام أبى حنيفة حيث جرحه بعضهم بكثرة القياس.

وقد قسم الإمام ابن قيم الجوزية الرأى ثلاثة أقسام.

١-رأى باطل بلا ريب، ورأى صحيح، ورأى هو موضع الاشتباه.

---

١. سورة ص: آية رقم ٢٩.

٢. د.عبدالقادر البحراوى: الإعتصام بالكتاب والسنة والحذر من مصادمة العقل والنقل- طبعة اولى - دار الطباعة الحرة - ١٤١٢هـ- ص٤٠:٤١.

٣. سورة البقرة: آية ١٧٠.

٤. سورة فاطر: آية ٢٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والأقسام الثلاثة قد أشار اليها السلف فاستعملوا الرأى الصحيح وعملوا به، وأفتوا بـــه وسوغوا القول به وذموا الباطل ومنعوا من العمل والفتيا والقضاء به، وأطلقوا ألسنتهم بذمـــه وذم أهله، والقسم الثالث سوغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الإضطرار اليه حيث لا يوجـــد منه بد ولم يلزموا العمل به ولم يحرموا مخالفته، ولا جعلوه مخالفاً للدين بل غايته أنهم خيروا بين قبوله ورده فهو بمنزلة ما أبيح للمضطر من الطعام والشراب الـذى يحـرم عنـد عـدم الضرورة إليه كما قال الإمام أحمد: سألت الشافعى عن القياس فقال لى عند الضرورة، وكـان استعمالهم لهذا النوع بقدر الضرورة لـم يفرطـوا فيـه ويفرعـوه ويوسـعوه كمـا صنـع المتأخرون.[1]

ويقول الشهرستانى فى الملل والنحل: إن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبـار، حتـى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد، ومن أجل ذلك كان الصحابة بعد وفاة النبى صلـى الله عليـه وسلم أمام حوادث لا تتناهى ولا تحصر وبين أيديهم كتاب الله والمعروف من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلجأوا الى الكتاب يعرضون عليه ما جد من حوادث، فإن وجدوا حكمـاً صريحاً حكموا به، وإن لم يجدوا فى الكتاب الحكم واضحاً اتجهوا الى المأثور عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم، واستثاروا ذاكرات أصحابه ليعلنوا حكم النبى صلى الله عليه وسلم فـى أمثال قضاياهم، فإن لم يكن بينهم من يحفظ حديثاً اجتهدوا آراءهم، ومثلهم فـى ذلـك مثـل القاضى المقيد بنصوص قانون إذا لم يجد فى النص ما يحكم به قضية بين يديه طبق ما يـراه عدلاً وإنصافاً.

هكذا كانوا يسيرون، يعرضون القضيه على الكتاب ثم على السنه، وإلا فالرأى، ولقـد جاء فى كتاب عمر لأبى موسى الأشعرى "الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليـس فـى كتاب ولا سنة، أعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور عند ذلك.

كان الصحابة بين حرجين إنبعثا من قوة وجدانهم الدينى: أحدهما: أن يكـثروا مـن التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. لكى يعرفوا أحكام الأحداث التى تحدث، وذلـك خشية الكذب عليه، جاء فى حجة الله البالغة للدهلوى: قال عمر رضى الله عنه حيـث بعـث رهطاً من الأنصار إلى الكوفة، إنكم تأتون الكوفة فتأتون قوماً لهم أزيـز بـالقرآن فيـأتونكم فيسألونكم عن الحديث، فأقلوا الرواية.[2]

---

١. ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين - ص٦٩.

٢. شاه ولى الله الدهلوى: حجة الله البالغة - ص١٥١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثانيهما:

أن يفتوا بآرائهم فيما لم يشتهر فيه أثر النبى صلى الله عليه وسلم وفى ذلك تهجم على التحليل والتحريم بآرائهم ، فمنهم من اختار التحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والوقوف عند الأثر ومنهم من اختار الرأى فيما لم يشتهر عن رسول الله صلى عليه وسلم فأفتى برأيه، فإن علم حديثا بعد ذلك رجع عن رأيه إلى الحديث.

والصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا كلهم علياً ولاعمر وأمثالهم فكانوا يتحرجون دون القياس أو الاجتهاد، وكان التابعون كمثلهم بل أشد حرجا كان سعيد بن المسيب واسع الفتيا حتى ليسمى سعيد بن المسيب الجرىء، فكان الرجل يدخل فيسأل عن الشيء فيدفعه الناس من مجلس إلى مجلس حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا.

ولقد أثر عن حنيفه أنه قال: "إنما يفتى الناس أحد ثلاثه: رجل يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه وأمير لا يجد بداً أو أحمق متكلف"، فقال ابن سيرين: فأنا لست أحد هذين فأرجو ألا أكون أحمق متكلفاً.

حتى إذا جاء أبو حنيفة وضع يده على تلك الأداة بشتى أسمائها (القياس أو الاستنتاج أو الاجتهاد أو الرأى) وقلبها فى كفه كعصا موسى، فجاءت بالأعاجيب.[1]

كان أبو حنيفة منطقياً، والمنطق جوهره القياس، فليس كالشرع مضمار لفارس هذه كفاياته.

وإذا كانت الشريعة معقولة المعنى، فلماذا لا يتعرف المجتهد باستقراء الأحكام الشرعية وجوه المصلحة فى النصوص ليستخرج منها القواعد العامة التى يقوم الشرع عليها، ويلحق مالا نص فيه بما فيه نص لاتحاد علة الحكم فى الأمرين؟ وما دامت الشريعة منوطة بمصالح العباد فلابد من أن تتفق أوصاف أحكامها مع أسبابها مع دفع ضرر أو جلب نفع.

والقياس الصحيح دائر مع أوامر الشريعة ونواهيها وجوداً وعدماً، كما أن المعقول دائر مع أخبارها وجوداً وعدماً، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل ولم يشرع ما يناقض العدل وعلى ذلك ففى كل ما يمكن أن يحدث من الأحداث حكم للإسلام سواء بنص أو باجتهاد.

والعمل التشريعى ليس بالأمر الهين بل هو من أدق الأعمال وأصعبها فقد كان لزاماً على الفقيه أن يحاول التوفيق بين النصوص، وبين المستقر من الأعراف فى البيئات المختلفه

---

١. عبدالحليم الجندى: أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام - ص١٧٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهو يحترم النص والعقل والمجتمع حتى لا يحدث تصادم قد ينتج عنه تعطيل هدف من أهداف الشرع، وكان الرأى وسيلة الى ذلك "ففى كثير من الوقائع اعتبرت المدارس الفقهية مبدأ الرأى للتوفيق بين الحياة فى نظر الفقه والحياة الواقعيه الاجتماعية.[١]

ومن هذا رأى أبو حنيفة فى مسألة الإبدال، من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "فى أربعين شاة شاة" فقال أبو حنيفة الشاة غير واجبة، وإنما الواجب مقدار قيمتها من أى مال كان، والشافعى ينكر ذلك، ويقول بوجوب الشاة على التعيين[٢]. وربما يرجع ذلك إلى أن أبا حنيفة رجل حضرى، وأن التعامل بالقيمه فى بيئته أمر يتمشى مع طبيعة أهل الحضر، فصرف لفظ الشاة إلى مفهوم آخر هو قيمتها.

ويشير الراغب الاصفهانى إلى أهمية معرفه معانى القرآن عند الفقهاء بخاصة إذ يقول: "فتحصيل معانى مفردات ألفاظ القرآن فى كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه وليس ذلك نافعاً فى علم القرآن فقط بل هو نافع فى كل من علوم الشرع وعليها إعتماد الفقهاء والحكماء فى أحكامهم"[٣]

وكان للإمام أبى حنيفة ملكة فى الجدال والجدال هو العدة الأولى للعقل الفقهى سواء فى الفقه أو القضاء أو الدفاع لأنها جميعاً تقوم على التعليل أو التسبيب أو الموازنة أى على القياس.

كان الإمام أبو حنيفة فى المسجد ذات يوم والأبيض بن الأعز يقايسه فى مسألة يديرونها بينهم، إذ صاح من ناحية المسجد فتى أزله الخلق الشكس فقال: ما هذه المقايسات؟ دعوها فأول من قاس إبليس، فلم يغضب أبو حنيفة لأن الغضب خلة لسليب الحجة، بل أقبل على الفتى يكبته بأى الكتاب، فذلك أدنى ألا يرتاب، قال: يا هذا وضعت الكلام فى غير موضعه، إبليس رد على الله سبحانه وتعالى أمره فقال سبحانه وتعالى: **"وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ"** وقال تبارك وتعالى: **"فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ"**

---

١. جولد تسيهر: العقيدة والشريعة فى الإسلام - تحقيق محمد يوسف موسى وآخرين، مطبعة الكتاب المصرية - القاهرة ١٩٤٦م - ص٦٣.

٢. الغزالى: المستصفى من علم الأصول - ج١/٣٩٤.

٣. الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن (المقدمة) -مطبعة الحلبى - القاهرة - ١٣٢٤هـ - ص٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا القياس الذى نحن فيه اتباع أمر الله تعالى لأنا نرده الى أصله، أمر الله تعالى فى كتابه، أو إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو إلى قول الأئمة من أصحابه والتابعين، فاتبعنا أيضاً فى ردنا كتاب الله وسنة رسوله والإجماع فنحن ندور حول الاتباع فنعمل بأمر الله تعالى، وإبليس حيث قاس خالف أمر الله تعالى ورده فكيف يستويان؟

أتت الفتى هذه الحجج بغتة فبهتته، وكأنما أحاطت به خطيئاته، فرأى العذاب وتقطعت به الأسباب وراح يقول غلطت يا أبا حنيفة، نور الله قلبك كما نورت قلبى.(١)

والإمام أبو حنيفة لم يكن ليبعد بآرائه عن النص، وأورد هنا مثالا أتى به الآمدى فى "إحكامه"، ما يقوله أصحاب أبى حنيفة فى قوله تعالى "**فَمَن لَّم يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً**"(٢)، ومن أن المراد به إطعام طعام ستين مسكيناً، مصيراً منهم إلى أن المقصود إنما هو دفع الحاجة، ولا فرق فى ذلك بين دفع حاجة ستين مسكيناً ودفع حاجة مسكين واحد فى ستين يوما"(٣)، وهذا الرأى لا يميل إليه الأصوليون مما يظهر من الآية إنما هو واضح فى وجوب رعاية العدد، ودفع الحاجة عن ستين مسكيناً.

نستطيع أن نستخلص مما سبق أن الإسلام قد عظم العقل وليس أدل على ذلك ما واجهه الرسول صلى الله عليه وسلم من أسئلة وحالات يستدعى الأمر حلها والإجابه عنها ولم يكن فيما نزل من القرآن جواب عنها، مثل المرأة التى جاءت تسأله عن حل لمشكلتها وقد ظاهر منها زوجها ولها منه أولاد إن ضمتهم إليها جاعوا، وإن ضمهم إليه ضاعوا، والمرأة تعترض على الوضع الجاهلى، والرسول يجيبها لا أجد لمشكلتك حلاً فيما نزل، فنزل حل الإشكال بقوله تعالى: "**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ**".(٤)

---

١. عبدالحليم الجندى: أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام – ص١٧٣، ١٧٤.

٢. سورة المجادلة: آية رقم ٤.

٣. الآمدى: على بن أبى يحيى بن محمد: الإحكام فى أصول الأحكام – مطبعة صبيح – القاهرة ١٩٩٨م – ج٢/٢٠١.

٤. سورة المجادلة: آية رقم ١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم بجانب ذلك يصدر الحكم في كثير من الموضوعات وليس لها نص خاص في القرآن فيعالجها دون إنتظار وهي على أساس ما أدركه من القرآن وهو خير من يعلم ذلك من آيات عامة تضع القواعد الكلية للفصل في الأمور، ومن علل ذكرها القرآن لبعض أحكامه.

فالرسول يهدف من حكمه الاجتهادى إلى تطبيق هذه القواعد وإلى تحقيق المصلحة ومنع النزاع والضرر على ضوء العقل. والظروف التى أمامه لأن هذه الظروف تلعب دور فى اتجاه الحكم والمجتهد لابد أن يراعى هذا كله فى إصدار حكمه الشرعى.[١]

وقد سئل الإمام الشافعى عن الاجتهاد؟ فقال: إن الله جل ثناؤه من على العباد بعقولهم فدلهم بها على الفرق بين المختلف وهداهم السبيل إلى الحق نصاً ودلالة.[٢]

وفى كلمة مختصرة كان أبو حنيفة يقدم للناس أداة الرأى أو القياس فيما وقع وفيما لم يقع، لا يفرق مما قد مت يداه، بل يفرضها على الفقهاء فرضاً، ويهيب بالعلماء أن ينهجوا طرائقه وأن يفيدوا منها، ثم يقف إلى جانبها جباراً يملأ العين والسمع ويزحم حواس الناس أجمعين، عقوداً ثلاثة أو أربعة من القرن الثانى للهجرة. معلناً للملأ أنها أداته التى يخلق بها ما لا يعلمون، وأن العقل والنقل أو الفكر والنص، هما الأساس الذى يبنى عليه أصول الفقه الإسلامى وفروعه.

ترى ماذا كان مصير الشريعة الإسلامية إذ هى وقفت فى حدود ظاهر النصوص أو اكتفى بمدلولاتها المباشرة سواء الاجتهاد الفردى أو القياس العرضى ترى ماذا كان مصير هذه الحضارة الإسلامية إذا لم تستند إلى قواعد مستنبطة من المنقول والمعقول من أصول الحنيفية السمحة التى يهدف إلى نشرها هذا الدين؟؟ ماذا كانت صانعه هذه الآلاف من الملايين فى هذه الحياة الدائمة المتجددة وهذا العالم المتباين المتغاير وهذه القرون التى يحمل كل منها طوابعه.

إنما يرجع الفضل فى سداد الشريعة الإسلامية لمطالب الحضارة الإسلامية إلى هذا المولد الدائم التوليد، ولكأنما كان أبو حنيفة يعنى نفسه حيث يقول: "من يطلب الفقه ولا يتفقه مثل الصيدلانى يجمع الأدوية ولا يدرى لأى داء هى، كذلك طالب الحديث لا يعرف وجه حديثه حتى يجيء الفقيه"

---

١. د.عبدالمنعم النمر: الاجتهاد – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٧م – ص٦٩.

٢. الإمام الشافعى: الرسالة – ص٢١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونستطيع من خلال ذلك كله أن نعبر عن موقف أبى حنيفة من العقل والنقل:

١-الرأى مصدر تشريع واجتهاد منذ بكور الإسلام فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وتابعه الصحابه وسلكوا فى ذلك مسالك مختلفة الاتجاه والفتاوى ولكنها موحدة الغاية والمصدر وهذا ما سار عليه أبو حنيفة.

٢-ظل الرأى عند الإمام أبى حنيفة حافظاً وحارساً وأميناً على أصول الدين يدافع عنها ويشرح لها ورأى الرأى أنه "لا إجتهاد فى الأصول" وأن (لا رأى مع نص) وهذا ما إستقام عليه المنهج عند الإمام أبى حنيفة.

٣-الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعية هو ما ثبت عن النظر العقلى عند المسلمين، وقد نما وترعرع فى رعاية القرآن الكريم ومنه نشأ علم (أصول الفقه) وذلك قبل أن تفعل الفلسفه اليونانيه فعلتها فى توجيه النظر عند المسلمين إلى البحث فيما وراء الطبيعة والإلهيات على أنحاء خاصة، (والاجتهاد بالرأى) هو بداية التفكير الفلسفى عند المسلمين ومن الطبيعى أن يقدم السابق على اللاحق فنتاولنا المنهج العقلى لأبى حنيفة فى الفقه سابقاً المنهج الكلامى الذى بدأ به ، ونتناول منهجه الكلامى فى معرفة البارئ تعالى بوحدانيته وصفاته ومعرفة الرسل بآياتهم وبيناتهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث:الذات والصفات

أ - صلة الذات بالصفات.

ب- صفات الذات وصفات الأفعال.

ج- كلام الله.

د - رؤية الله.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولا : مسألة الذات والصفات:

يعد مبحث الأسماء والصفات مبحثاً أساسياً من مباحث علم الكلام، لأنه يتعلق بقضية على قدر كبير من الأهمية وهي التوحيد التي تعد جوهر الإيمان.

والاسم مشتق إما من "السمو" على ما هو قول البصريين، أو من "السمة" على ما هو قول الكوفيين، فإن كان من السمو وجب أن يكون كل لفظ دل على معنى من المعاني اسماً وذلك لأن اللفظ لما كان دالاً على معنى فهو من حيث أنه دليل يكون متقدماً على المدلول، فكان معنى السمو حاصلاً فيه، وإن كان من السمة فكل لفظ دل على معنى فإنه يجب أن يكون اسماً على هذا التفسير.[1]

وأما النحويون فقد عرفوا الاسم بأنه لفظة مفردة دالة بالوضع على معنى معين من غير أن تدل على زمانه المعين.

وأما المتكلمون فقد خصصوا لفظ الاسم ببعض أقسام هذا القسم وذلك لأن كل ماهية فإما أن تعتبر من حيث هي هي، أو من حيث أنها موصوفة بصفة معينة، فالأول هو الاسم، والثاني هو الصفة، فالسماء والأرض والرجل والجدار أسماء، والخالق والرازق والطويل والقصير صفات، وهذا هو الفرق بين الاسم والصفة على قول المتكلمين.

ويرى الرازي أن الاسم أشرف من الصفة لوجوه، الأول أن الاسم أقدم من الصفة لأن المراد من الصفات الأسماء المشتقة، ولا شك أن الأسماء الموضوعة أصل للأسماء المشتقة.

الثاني: أن الأسماء المشتقة مركبة من الأسماء والموضوعة مفردة ولاشك أن المفرد أصل للمركب.

الثالث: أن الأسماء الموضوعة أسماء الذوات وأما المشتقة فإنها أسماء الصفات، والذات أشرف من الصفة فوجب أن تكون الأسماء أشرف من الصفات.

---

١. الرازي: محمد بن عمر الخطيب، لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات، تصحيح- محمد بدر الدين أبوفراس العفساني الحلبي الأزهري - طبعة أولى المطبعة الشرقية - ١٣٢٣هـ- ص١٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأما أبوزيد البلخى فقال: إن الصفات أشرف من الأسماء وذلك لأن الاسم يفيد السامع شيئاً إلا دلالة مجملة، فإن من سمع لفظ الرجل عرف أنه أراد شيئاً، فأما أن ذلك الشئ ما هو فإنه لا يحصل بذكر هذا الاسم، وأما الصفات فإنها تعرّف ماهيات الأشياء وحقائقها وأحوالها وخواصها، فثبت أن الصفات أشرف من الأسماء من هذا الوجه.(١)

ولم تكن قضية الذات والصفات من القضايا المثارة فى عهد الصحابة الكرام، فلم يسأل أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شئ مما وصف الرب به سبحانه وتعالى نفسه الكريمة فى القرآن الكريم، وإنما أثبتوا له صفات أزلية من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام بلا تشبيه.

ولما سئل الإمام مالك فى قوله ''**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**''(٢)، قال ''الاستواء معلوم والكيف مجهول''، وأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر به سبحانه عن نفسه من أنه مستو على عرشه بائن من خلقه بالكيفية التى يعلمها هو جل شأنه.(٣)

كذلك كان للصراع الفكرى بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى أثره فى إثارة قضية التنزيه والتشبيه، فمن المعروف أن اليهود مشبهة، فقد وضعوا الرب -- تعالى عن ذلك علوا كبيراً - صفات بشرية وحسيه، ففى التوراة: ''أن الله خلق آدم على صورته، الأمر الذى جعل تصورهم لله على نحو بشرى: إذا خلعوا على الله صفات الإنسان الجسمية والانفعالية وفرغ الله فى اليوم السادس من عمله الذى عمل فاستراح فى اليوم السابع''(٤)

وإذا كان القول بالأقنومية أى الأقانيم الثلاثة، وهى الأب والابن والروح القدس، والذين يتم بواسطتهم خلق الرجل كما قال أسقف لاتيفود فى كتاباته عام ١٦١٨، والذى يشكل أيضاً أهم أصول العقيدة المسيحية، فقد لزم عن ذلك بحث فى ذات الله وصفاته، هل صفات الله

---

١. الرازى: لوامع البينات فى شرح أسماء الله تعالى والصفات، ص١١.

٢. سورة طه: آية٥.

٣. محمد خليل هراس: شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، صححه إسماعيل الأنصارى-مكتبة التراث الإسلامى - القاهرة - ص٨٨.

٤. د.أحمد محمود صبحى:فى علم الكلام المعتزلة، الطبعة الرابعة، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٨٢م،ج١/٢٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عين ذاته حتى لا تستقل صفة عن الذات وتتجسد فى موجود مغاير لله؟ أم هى غير ذاته كما يرى المسيحيون؟[١]

ثم كان هناك عامل ثالث وراء إثارة مسأله الذات والصفات وهو عامل داخلى ذلك أن: للقرآن الكريم آيات يدل ظاهرها على التشبيه، وكذلك الأحاديث القدسية والنبوية كل ذلك كان وراء ظهور مسألة الذات والصفات وجعلها عرضة للبحث، وقد أجمع المسلمون على أن الله تعالى واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، فقد تنزه سبحانه وتعالى عن صفات المخلوقين "**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**".

أ - موقف أبى حنيفة من الذات والصفات:

وضع أبو حنيفة عقيدة أهل السنة والجماعة فى صورتها الأولى "إن الله تعالى واحد لا من طريق العدد، ولكن من طريق أنه لا شريك له" "**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ* وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**"، والله تعالى واحد: أى فى ذاته حتى لا يتوهم أن يكون بعده أحد، ومتفرد بصفاته فهو مستغنى عن كل أحد، ليس بمحل الحوادث ولا بحادث[٢] "لا يشبه شيئاً من الأشياء من خلقه، ولا يشبهه شئ من خلقه، لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية[٣].

"وصفاته كلها ذاتية كانت أو فعلية خلاف صفات المخلوقين، وذلك لأنه يعلم لا كعلمنا، فلا تماثل بين علمنا وعلمه لأن علمنا حادث وعلمه قديم، وكذا القدرة فإنه يقدر لا كقدرتنا لأن قدرته مؤثرة بالإيجاد، وكذا الرؤية فإنه يرى لا كرؤيتنا الأشياء فإن رؤيتنا مشروطة بشروط، ولا كذلك رؤيته تعالى، وكذلك صفة الكلام، فكلا منا من جنس الأصوات والحروف المعتمدة على المخارج، والله متكلم بلا آلة ولا حرف ولذا قالوا الوحى كلام خفى

Rad hakrishnan: east and west in religion – gerorge allen & unwinltd – London – P73.

٢. ملا على القارى: شرح الفقه الأكبر – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م – ص٢٢،٢٣.

٣. الإمام أبو حنيفة: الفقه الأكبر – عدد جمادى الأولى والاخرة من مجلة الأزهر – ١٤٠٣ – ص١٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يدرك بسرعة وذلك لأنه ليس فى ذاته مركب من حروف مقطعة تتوقف على تموجات متعاقبة، والله سبحانه وتعالى شئ لا كالأشياء[١].

وصفات الله الذاتية كالحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة كلها صفات أزلية وصفاته فى الأزل غير محدثة ولا مخلوقة ومن قال إنها مخلوقة او محدثة أو وقف أو شك فيها فهو كافر بالله تعالى.[٢]

وصفاته الفعلية كالتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع لم يزل ولا يزال بصفاته وأسمائه لم يحدث له صفة ولا اسم.[٣]

ب- موقف السلف من الذات والصفات:

وقف السلف على ظاهر الدين دون تأويل للآيات، فلم يتعرضوا للتاويل ولا التشبيه، فقد نبذ ابن حزم كل تأملات علماء اللاهوت سواء (المعتزلة أو الأشاعرة) أوغيرهم فى أسئلة، مثل جوهر الله لأنها عديمة النفع ويجب على الإنسان أن يلقن نفسه على استحالة فهم وإدراك هذه الأسرار الغامضة أوسبرأغوارها، وخاصة سر جوهر الله، فالصفات التى تنسب إلى الله فإن معرفتنا خاضعة لما هو موضح فى القرآن[٤]، أما ابن تيمية فقد أكد على أن طريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصف به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل وقد بنى هذا الإثبات على أصلين.

١-ثبوت صفات الكمال لله تعالى، وعلى تنزهه عن كل صفات النقص، ويستدل لإثبات هذه الصفات من القرآن والحديث والآثار الصحيحة المروية عن الصحابة ومن إليهم، وهو يقول فى ذلك ما نصه: ''وجوب إثبات العلو لله تعالى ونحوه يتبين من وجوه أحدها: أن يقال إن القرآن والسنن المستفيضة المتواترة، وكلام السابقين والتابعين، بل وسائر القرون

---

١. الماتريدى: شرح الفقه الأكبر مخطوط ورقة ٢٠١.

٢. الإمام أبو حنيفة: الفقة الأكبر ص١٤.

٣. المرجع السابق- نفس الصفحة.

4. Magid Fakhry: The History of Islamic- Philosophy – P.314.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثلاثة، مملوء بما فيه من اثبات العلو لله على عرشه بأنواع من الدلالات، ووجوه من الصفات، وأصناف من العبارات''.[١]

٢-الإيمان بأن الله سبحانه "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فى أسماء الله وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه.[٢]

كما أكد الطحاوى[٣] على عقيدة أهل السنة فى مسألة الذات والصفات بقوله:''إن الله واحد لا شريك له، ولا شئ مثله، ولا شئ يعجزه، ولا إله غيره، قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يفنى ولا يبيد ولا يكون إلا ما يريد. لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام، مازال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً، من وصف الله بمعنى من معانى البشر فقد كفر، من أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر ،علم أنه بصفاته ليس كالبشر''.[٤]

ج- موقف الأشاعرة والماتريدية من الذات والصفات:

سلك الأشعرى والماتريدى منهجاً وسطاً بين الجهمية والمعتزلة، فينكر ابن عساكر أنه نظر فى كتبهم ووجد أنهم عطلوا وأبطلوا، فقالوا: لاعلم لله ولاقدرة ولاسمع ولابصر ولاحياة ولابقاء ولا إرادة، وقالت الحشوية والمجسمة، إن لله علماً كالعلوم وقدرة كالقدر وسمعاً

١.د.محمد يوسف موسى: ابن تيمية - عدد'٥' من سلسلة أعلام العرب - مكتبة مصر - القاهرة - ص١٥٣.

٢.محمد خليل هراس: شرح العقيدة الواسطية - لابن تيمية - ص٢٣،٢٤.

٣.الطحاوى: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى الأزدى الحجرى المصرى، شيخ الحنفية الفقيه الثبت، صنف التصانيف، منها العقيدة السنية، وبرع فى الفقة والحديث، ولد رحمه الله عام ٢٣٩هـ وتوفى عام ٣٢١هـ، وله اثنتان وثمانون سنة، قال ابن يونس كان ثقة ثبتا لم يخلف مثله، وقال الشيخ أبو اسحق انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، نسبته إلى طحا قرية بصعيد مصر، (شذرات الذهب ج٢ ص٢٨٨).

٤.أبو جعفر الطحاوى: العقيدة الطحاوية، عدد جمادى الأولى وجمادى الأخرة من مجلة الأزهر، ١٤٠٣، ص٢٩،٣٠،٣٢، وانظر كتاب 'صيد الخاطر' لابن الجوزى، تحقيق ناجى الطنطاوى، دار الفكر بدمشق، ج٢/٤٥١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كالأسماع وبصراً كالأبصار، فسلك الأشعرى طريقة بينهما فقال: إن الله سبحانه وتعالى علماً لا كالعلوم وقدرة لا كالقدر وسمعاً لا كالأسماع وبصراً لا كالأبصار.(١)

ولما وصف الأشعرى الله بهذه الصفات فقد نزهه من التشبيه يقول الأشعرى "نبه الله تعالى خلقه على أنه واحد باتساق أفعاله وترتيبها وإنه تعالى لا شريك له فيها بقوله "**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**"(٢)

كذلك فإن الأمة لا تقدر على الخروج مما سبق فى علم الله منهم وإرادته لهم على أن طاعته تعالى واجبة عليهم فيما أمرهم به والكفر كان لسابق علمه فيهم وإراداته لهم أنه لا يطيعونه وإن ترك معصيته لازم لجميعهم، كذلك فإنه سبحانه وتعالى عادل على من خلقه من عباده مع علمه أنهم يكفرون إذا أمرهم وأعطاهم القدرة التى يعلم أنها تصيرهم إلى معصيتهم وأنه عدل فى تبقية المؤمنين إلى الوقت الذى يعلم أنهم يكفرون فيه، ويبقيهم لهم على الذم المنقطع بالعذاب الدائم لأنه عز وجل ملك لجميع ذلك فيهم، غير محتاج فى فعله إلى عناية غيره حتى يكون جائراً فيه قبل تملكه بل هو تعالى فى فعل جميع ذلك عادل وله مالك يفعل ما يشاء.(٣)

فالله واحد عالم قادر حى: و الله لا يشبهه شئ ولا يشبه شيئاً، لأنه لو أشبه المحدثات لكان حكمها، وهو واحد لأنه لو كان أكثر من إله لما جرى تدبير العالم على الإحكام والنظام، ثم أثبت الأشعرى العلم والقدرة والحياة كصفات ذات لله سبحانه وتعالى وأن الله ليس بجسم لأن الجسم هو الطويل العريض العميق، فان قيل جسم لا كالأجسام كان رده إننا لا نطلق على البارئ اسما لم يسم به نفسه ولا سماه به رسوله.(٤)

---

١. الماتريدى: التوحيد - تحقيق د/فتح الله خليفة - دار الجامعات المصرية - ص١٠.

٢. سورة الأنبياء: آية ٢٢.

٣. الأشعرى: أبو الحسن: أصول أهل السنة والجماعة - المسماه برسالة أهل الثغر - تحقيق محمد السيد الجليند - مطبعة التقدم - القاهرة - ص٤١.

٤. الأشعرى: اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع - تحقيق حموده غرابه - مطبعة مصر - ١٩٥٥ - ص٢١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الأدلة النقلية فى إثبات وجود الله ما يعرف "بالبرهان الطبيعى" فقد استهل الأشعرى كتابه اللمع بفصل فى وجود الصانع قرر فيه أن الدليل على وجود الله تعالى أن الإنسان الذى هو فى غاية الكمال والتمام كان نطفة ثم علقة ثم لحماً ودماً وعظماً، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، وكذلك ينتقل الإنسان فى حال كبره من طور إلى طور حتى يصير شيخاً دون أن ينقل نفسه بنفسه، فإذا تفكر الإنسان فى هذا علم بالضرورة أن له صانعاً قادراً عالماً مريداً إذ لا يتصور حدوث هذه الأفعال المحكمة بدونه لأن كل حادث لابد له من محدث.(١)

وقد أخذ ابن تيمية بهذا الدليل واعتبره دليلاً قرآنياً(٢) وفطرياً(٣) فى آن واحد إذ أن كل ما فى الوجود إنما هو مفتقر إلى الله محتاج إليه لابد له منه لأن العالم حادث والحادث لابد له من محدث فيلزم وجوده وجود الصانع.

كذلك لم يفارق الأشعرى المعتزلة حين أثبت العلم والقدرة والحياة صفات ذات لله تعالى وخالفهم فى سائر الصفات الذاتية الأخرى التى أثبتها لذاته كلها، فالمعتزلة منعوا سائر الصفات التى توهم التشبيه، أما الأشعرى فقد أثبت صفات أزلية سبعة عالم، قادر، حى، مريد، سميع، بصير، متكلم(٤)، لأنه يستحيل أن يتصف الله بأضداد هذه الصفات.(٥)

١.د.عبدالفتاح فؤاد: ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - فرع الإسكندرية - ١٩٨٠ - ص١٢٤.

٢.وقد استخلص الأشعرى دليله من القرآن فى قوله تعالى "أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون" "الطور :٣٥" فهذه الآية فيها تقسيم حاصر فمن ناحية نجد التساؤل أخلقوا من غير خالق خلقهم وهذا ممتنع فى بداية العقول إذ أن لكل معلول علة، ومن ناحية اخرى نجد التساؤل الثانى أم هم خلقوا أنفسهم وهذا أشد امتناعا فعلم أن لهم خالقاً خلقهم.(انظر ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفى للدكتور عبدالفتاح فؤاد ص١٢٤).

٣.الدليل الفطرى: يتضح من ملاحظة أن الله تعالى ذكره بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه القضية التى استدل عليها فطرية بديهية، مستقرة فى النفوس لا يمكن لأحد إنكارها ولا يمكن لمن هو صحيح الفطرة أن يدعى وجود حادث بدون محدث أحدثه كما لا يمكنه أن يقول أنه هو الذى أحدث نفسه.(ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفى ص١٢٥).

٤.د. أحمد صبحى - فى علم الكلام الأشاعرة ج٢/٤٩،٥٠.

٥. للبارئ تعالى صفات كثيرة منها نفسية وهى الوجود، ويرى المحققون من المتكلمين إنها من الأمور الاعتبارية، ومنها صفات سلوب بمعنى أن مفهومها سلبى مثل القدم والبقاء، ومنها صفات ثبوتية مثل، (القدرة والإرادة) وهى المقصود بقول الأشعرى "صفات الذات". "اللمع للأشعرى - ص٣١".

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما اتفق الماتريدى مع الأشعرى على أن "تعرف الله ليس معرفة ذاته تعالى فقط، ولا معرفة صفاته فقط، بل الإيمان أن تعرف ذاته وتعرف صفاته وتجزم بثبوتها على وجه الكمال وأنتفاء صفات النقصان عنه تعالى لذاته وتعتقد اعتقاداً جازماً وتصدق تصديقاً يقيناً، وتعبر عن هذا الاعتقاد وتقول أنه موجود واجب وجوده أى ذاته مقتضية لوجوده اقتضاءاً تاماً مستغن فى وجوده عن الغير".[١]

أما عن التشبيه فقد اتفق الماتريدى مع الأشعرى على أن الله تعالى واحد لا شبيه له، دائم لاضد له ولا ند وأصل ذلك أن كل ذى مثل واقع تحت العدد فيكون أقله اثنين، وكل ذى ضد تحت الفناء إذ يهلك ضده، وعلى ذلك كل شئ سواه له ضد يفنى به، وشكل بعد له ويصير به زوجاً، فحاصل تأويل قوله: واحد أى فى العظمة والكبرياء، وفى القدرة والسلطان، وواحد بالتوحيد عن الأشباه والأضداد، ولذلك بطل القول فيه بالجسم والعرض إذ هما تساويلاً الأشياء، وإذ ثبت ذا بطل تقدير جميع ما يضاف إليه من الخلق، ويوصف به من الصفات بما يفهم منه لو أضيف إلى الخلق ووصف به.[٣]

أما عن صفة التعطيل:

المعطلة: مصطلح يطلقه أهل الإثبات، أى إثبات الصفات للذات الإلهية، بمعنى زيادتها عليها على الذين ينفونها - بمعنى يوجدونها بها إذ يرى المثبتون أن فى ذلك تعطيلاً لفعالية الذات الإلهية وفعلها.[٤]

والمعطلة هم نفاة للصفات، وأول من قال بنفى الصفات هو الجهم بن صفوان، وقد ذكر الشهر ستانى فى "الملل والنحل" بأن جهما وافق المعتزلة فى نفى الصفات، وزاد عليهم

---

١. الماتريدى: أبو منصور: رسالة فى الاعتقاد على مذهب أبى حنيفة - مخطوط ورقة رقم ١١.

٢. الماتريدى: التوحيد ص٢٣.

٣. محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامى - دار الشروق- ١٤١١هـ - ١٩٩١م - ص٧٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأشياء منها قوله لا يجوز أن يوصف البارئ تعالى بصفة يوصف بها خلقه[١] ، لأن ذلك يقتضي تشبيها، فالمعطلة لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التعطيل والتمثيل، مثلوا أولاً وعطلوا أخراً وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى.[٢]

وقد جاء موقف المعتزلة من مسألة الذات والصفات معارضاً للتصور اليهودى لله من جهة ولآراء المجسمة والمشبهه والحشوية من جهة أخرى، فالله لدى المعتزلة ''ليس كمثله شئ'' ليس بجسم ولا شبح ولا صورة (إنكار على المجسمة الذين جعلوا لله جسما، وعلى فكرة العهد القديم أن الله خلق آدم على صورته) ولا شخص ولا جوهر ولا عرض "إنكار على المسيحية إمكان تشخيص الله أو أنه جوهر يقوم بأقانيم"، ولا بذى حرارة ولا برودة ''إنكار على الحشوية والمشبهة''[٣]. فالمشبهة والكرامية التزموا النصوص الظاهرة وفهموها فهماً حرفياً، فانتهوا بأن أثبتوا لله عدداً كبيراً من الصفات الإنسانية فقالوا أن له وجهاً ويدين وعينين، وقالوا إن الله سبحانه وتعالى قد تجسد وظهر بصورة البشر، مما جعل أحد المستشرقين وهو "ليون جوتييه" يظن أن جميع المسلمين في صدر الإسلام كانوا من المشبهة.[٤]

أما الأشاعرة فقد نفوا صفة الجسمية عن الله، لأن صفة الجسم أن يكون طويلاً عريضاً مجتمعاً عميقاً، وهذا لا يجوز على الله لأن المجتمع لا يكون شيئاً واحداً، لأن أقل قليل الاجتماع لا يكون إلا من شيئين، لأن الشئ الواحد لا يكون لنفسه مجامعاً، ومن ثم فإن الله شئ واحد، فبطل بذلك أن يكون مجتمعاً.[٥]

١.الشهرستانى: أبو الفتح محمد عبدالكريم أبو بكر أحمد - الملل والنحل - تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل - فوسعة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م - ج١/٥٥.

٢.ابن تيمية: الاسماء والصفات - تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت - ج٢/٢٢.

٣.د.أحمد صبحى: فى علم الكلام - المعتزلة - ج١/١١٦.

٤.ابن رشد: مناهج الأدلة فى عقائد الملة - تحقيق د/محمود قاسم - طبعة ثالثة - مكتبة الأنجلو المصرية - ص٣٧.

٥.الأشعرى: اللمع - ص٢٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الماتريدى فقد أثبت أن ''الواحد هو الذى لا يقبل الوصل والفصل أشار إلى وحدة الإله سبحانه وتعالى، فالله واحد لا كواحد من الخلق كإنسان واحد، وذات واحدة لأن الخلق ذو شكل وذو نهاية قال عامة أهل السنة والجماعة أن الله تعالى واحد لا من طريق العدد لأن العدد إنما صار عدداً بما أضيف بعضه إلى بعض فيتكثر بذلك ويتقال، فلو قيل إنه واحد من طريق العدد لكان فيه إدخاله تعالى فى جملة ما يتكثر بانضمام البعض، ويتعدد بقطع هذا الضم، وهذا بالنسبة إليه تعالى محال''[١]، وهو يتفق فى هذا مع الإمام أبى حنيفة.

ب- صلة الذات بالصفات:

أثار المتكلمون مشكلة البحث بين الذات الإلهية والصفات فقالت المعتزلة بأن الصفات هى عين الذات، وبذلك ضيّقوا على أنفسهم حين التزموا بموقف الطرف المقابل للتصور المسيحى وما ترتب عليه من تثليث، أما الأشعرى فقد خالف المعتزلة لأنه يرى فى موقفهم تعطيلاً للصفات، فضلاً عن ترادف مفاهيمها، وعلى الرغم من هجوم الأشعرى للمعتزلة فى القول بأن الصفات هى عين الذات، فلم يأخذ بالقول المضاد، فلم يقل بأن الصفات غير الذات، إنما قال أن الصفات لاهى هو ولا هى غيره.[٢]

وكذلك السلف وسائر الأئمة لم يطلقوا على القرآن وسائر صفات الله أنها غيره، ولم يطلقوا عليها أنها ليست غيره لأن لفظ الغير فيه إجمال قد يراد به المباين المنفصل، فلا يكون صفة الموصوف أو بعضه داخلاً فى لفظ الغير، وقد يراد به ما يمكن تصوره دون تصور ما هو غيره له فيكون غيراً ولهذا يفرق بين قول القائل ''الصفات غير الذات'' أو بين قوله ''صفات الله غير الله'' لأن مسمى اسم الله يدخل فيه صفاته بخلاف مسمى الذات، فأنه لا يدخل فيه الصفات، ولهذا لا يقال صفات الله زائده عليه سبحانه، وإن قيل الصفات زائدة على الذات، لأن المراد هى زائدة على ما أثبته المثبتون من الذات المجردة والله تعالى هو الذات الموصوفة بصفاته اللازمة، فليس اسم الله متناولاً لذات مجردة من الصفات أصلاً، ولا يمكن وجود ذلك.[٣]

---

١. الماتريدى: رسالة فى الإعتقاد مخطوط ورقة رقم ١٧.

٢. د. أحمد صبحى: فى علم الكلام - الأشاعرة - ج٢/٥٠.

٣. ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم - تحقيق محمد حامد الفقى - ط٢ - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ١٩٥٠ - ص٤٢٠، ٤٢١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الإمام الماتريدى فقد اتفق مع أهل السنة الذين يرفضون الخوض فى هذه المسألة، وأكد على أن أسماء الله تعالى أغيار، كما أن أسماءه تعالى ترجع إلى الاشتقاق من الصفات، ولولا ذلك لصارت التسمية على غير تحقيق المعنى المفهوم.(١)

وقد أثبت القاضى الباقلانى وهو من أصحاب الأشعرى أن الصفات معان قائمة به لا أحوالاً، وقال هذه الصفات أزلية قائمة بذاته تعالى، ولا يقال: ''هى هو، ولا هى غيره، ولالاهو ولالاغيره'' والدليل أنه متكلم بكلام قديم، ومريد بإرادة قديمة.(٢)

وقد اقترب الإمام النسفى من قول الأشاعرة رغم كونه ماتريدى، من أن الصفات ليست بأغيار لله تعالى، بل كل صفة لاهو ولاغيره، لأن الغيرين موجوداته، يتصور وجود أحدهما مع انعدام صاحبه، وذلك فى حق ذات الله تعالى وصفاته ممتنع، إذ ذاته أزلى، وكذا صفاته، والعدم على الأزلى محال، فانعدم حد المغايرة، وانعدمت المغايرة، كالواحد من العشرة، لا يكون غير العشرة، ولا عين العشرة، لاستحالة بقائه بدونها أو بقائها بدونه، إذ هومنها، فعدمها عدمه ووجودها وجوده.(٣)

ويذهب أبو المعين النسفى إلى القول بأن الله عالم بعلم أزلى، وعلمه لاهو الذات ولاغير الذات، فلو قلنا أن العلم غير العالم لأدى ذلك إلى كون العلم محدثاً، وهذا لا يجوز، كذلك إذا قلنا بأن العلم هو العالم فإن ذلك يؤدى إلى أن يكون هناك إلهان اثنان، والله تعالى واحد لا شريك له، فإذا بطلت تلك الفروض فإنه لم يبق إلا أن يكون العلم قائماً بذاته تعالى فى الأزل، لأنه لو لم يكن قائماً بذات الله فى الأزل لكانت ذات البارئ محلا للحوادث وذلك ممتنع.(٤)

ج- صفات الذات وصفات الأفعال:

يعتبر الإمام أبو حنيفة أول من وضع فروقاً دقيقة بين صفات الذات، وصفات الفعل، فعندما تكلم عن صفات الله قال ''إن الله لم يزل بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية'' ومعنى لم يزل ولا يزال أنه لم يحدث له اسم من أسمائه ولا صفة من صفاته، وقد قسمها كالتالى:

١.الماتريدى: التوحيد - ص٦٥،٦٦.

٢.الشهرستانى: الملل والنحل - ج١/٥٥.

٣.النسفى:أبو المعين - التمهيد فى أصول الدين - تحقيق د/عبدالحى قابيل - دار الثقافة للنشر والتوزيع - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م - ص٢٣.

٤.د.محمد احمد عبدالقادر: الإلهيات فى الفكر الإسلامى - دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية - ١٩٦٦ - ص٢٧٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أ - الصفات الذاتية:

هى كل صفة يوصف الله بها ولا يوصف بضدها هى صفة ذاتيه، كـــالعلم والحيـاة والكلام، وكل هذه الصفات قديمة.

ب- الصفات الفعلية:

هى الصفة التى يوصف الله تعالى بضدها كالخلق والرزق.[١]

أما الصفات الذاتية عند الأشاعرة فهى قديمة وقد أثبت الأشعرى صفات أزلية ســبعة كما ذكرنا سابقاً وهى إنه سبحانه وتعالى عالم قادر، وحى، ومريد، وسميع، وبصير ومتكلـم، أما الصفات الفعلية فهى تتوقف على وجود الخلق والتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع، أمـــا الماتريدية فقال الشيخ أبو منصور- رحمه الله- إعلم أنه يجب عليك أن تؤمن بالله والإيمان به تعالى ليس معرفة ذاته تعالى فقط، ولا معرفة صفاته فقط، بل الإيمان أن تعرف ذاته، وتعرف صفاته وتجزم بثبوتها على وجه الكمال وانتفاء صفات النقصان عنه تعالى.[٢]

ويرى الإمام الماتريدى أن الله يوصف بجميع صفاته فى الأزل دون تفرقه بين صفات الذات كالقدرة والعلم، وصفات الأفعال كالخلق والإحياء، وصفاته كلها ذاتيه كـــانت أو فعليـة خلاف صفات المخلوقين، فهو عالم بعلمه بطريق الإشارة لا كما زعمت المعتزلة علـــى أنـــه تعالى عالم بالذات لا بالعلم، وكذا قوله قادر بقدرته والقدرة صفة فى الأزل، وأما عن صفـات الأفعال فقال الماتريدى أنه تعالى خالق بتخليق والتخليق صفة فى الأزل، وكذا فى قوله وفاعلا بفعله والفعل صفة فى الأزل، ولما طال العهد فى ذكر الموصوف على ذكـــره تعـالى قـال الماتريدى وفعله صفة فى الأزل وكذا قدوره عليه أن أزلية الفعـل اسـتلزم أزليـة المفعـول والمفعول مخلوق أى حادث مسبوق بالعدم وفعل الله غير مخلوق ولا يلزم فى قدم الفعل قـدم المفعول.[٣]

وأما عن السلف فقالوا: إن صفات الله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله، نسبتها إلى ذاته المقدسة كنسبة صفات كل شئ إلى ذاته فنعلم أن العلم صفـــة ذاتيـة للموصـوف ولـه

---

١. د.النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام - طبعة ثامنة - دار المعارف - القاهرة-ج١/ ص٢٣٦.

٢. الماتريدى: رسالة فى الاعتقاد على مذهب الإمام أبى حنيفة - مخطوط ورقة رقم ١١.

٣. الماتريدى: شرح الفقه الأكبر - مخطوط ورقة رقم ٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خصائص، وكذلك الوجه لا يقال إنه مستغن عن هذه الصفات، لأن هذه الصفات واجبة لذاتـه، والإله المعبود سبحانه هو المستحق لجميع هذه الصفات.[١]

أما المعتزلة فقالوا إن ما يثبت ولا ينفى فهو من صفات الذات، وما يثبت وينفى مـن صفات الفعل.[٢]

صفة التكوين:

يعرفها الإمام الماتريدى بانها صفة الله تعالى قائمة بذاته تعالي قديمة أزايـة أبديـة، ومعناه الإيجاد والتخليق وهو غير الإرادة والقدرة.[٣]

أما عند الأشاعرة فقالوا إن التكوين والمكون[٤] واحد ونحوها على ما بين، قال الإمـام الحافظ ابن عساكر، إن هذه المسائل لو حفظ الكلام فيها لحصل الاتفاق وبـأن الكـلام فيـها حاصله الوفاق.

ويرى الإمام النسفى أن التكوين صفة لله تعالى أزلية، قائمة بذاتـه، كالحيـاة والعلـم والقدرة والسمع والبصر وهو تكوين العالم، وكذا قدرته الأزلية مع مقدوراتها فكان العالم وكـل جزء من أجزائه مخلوقاً لله تعالى، لدخولها تحت تكوينه الذى هو الخلق وحصولها به كما هى معلومة لله تعالى لدخولها تحت علمه الأزلى وهذا لأنا أثبتنا بالدليل أن العالم محدث والله تعالى محدثه على ما قررنا، وان يكون العالم محدثاً إلا وأن يكون حصوله بإحداثه، ولو لـم يكـن الإحداث صفة لله تعالى أزلية لما كان العالم حادثاً به، فلم يكن محدثاً مخلوقا له.[٥]

ويرى الإمام النسفى أن قول الأشعرية وأكثر المعتزلة بأن التكوين والمكون واحد قول محال، لأن التكوين لو كان هو المكون وحصول المكون بالتكوين لكان حصول المكون بنفسـه لا بالله تعالى، فلم يكن الله تعالى خالقاً للعالم، بل كان العالم وكل جزء من أجزائه خالقا لنفسه، إذ حصوله بالخلق وخلقه نفسه، وكذا يكون عينه خالقاً وعينه مخلوقاً، فهو الخالق وهو الخلـق وهو المخلوق، وهذا مع ما فيه من تعطيل الصانع وإثبات الغنية عنه[٦].

١.د.محمد زيدهم: صفات الله وأصول التفسير عند ابن تيمية - دار الرشاد- القاهرة - ١٤٠٣هـ - ١٩٩٢ - ص٢١.

٢.الماتريدى: رسالة فى الإعتقاد مخطوط ورقة ١٩.

٣.المرجع السابق: مخطوط ورقة١٨.

٤.ابن عساكر : أبو القاسم على بن الحسن بن هبه الله، تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسـن - مكتبة التوفيق - دمشق - ص١٤٠.

٥.النسفى: أبو المعين - التمهيد فى أصول الدين - ص٢٩.

٦.المرجع السابق- ص٣٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما التفتازانى فقد قال فى شرح العقائد النسفيه، إن تكون الأشياء وصدورها عن البارئ تعالى يتوقف على صفة أزلية وأشار إلى أن خصوصيات الأفعال كالترزيق والتصوير والاحياء والإماتة راجع إلى التكوين، فإنه إن تعلق بالحياة يسمى إحياء، وبالموت إماته، وبالصورة تصويراً وبالرزق ترزيقاً فالكل تكوين، والإرادة صفة لله تعالى أزلية قائمة بذاته.(١)

أما المعتزلة فرأيهم هو أن كل صفة يجرى عليها النفى والإثبات تعد من صفات الأفعال عندهم، فالخلق والرزق والكلام والإرادة كلها صفات أفعال وهى حادثة عندهم، أما السلف فقد أثبتوا فعلاً قائماً بذاته، وخلقا غير المخلوق ويسمى التكوين.(٢)

رأى أبى حنيفة فى الصفات بوجه عام:

تكلمنا عن مذهب الإمام أبى حنيفة فى الصفات سابقا وهو أن الله لم يزل بأسمائه وصفاته الذاتيه والفعلية، فالذاتية هى الحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة، وأما الفعلية فهى التخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع، وغير ذلك من صفات الفعل، ويقول أبو حنيفة أن الله خالق بتخليقه والتخليق صفة فى الأزل وفاعلا بفعله والفعل صفة فى الأزل، والفاعل هو الله تعالى، والفعل صفة فى الأزل، والمفعول مخلوق وفعل الله غير مخلوق وصفاته تعالى فى الأزل غير محدثة ولا مخلوقة.

وصفات الفعل كلها قديمة، وقد تابعه فى ذلك الماتريدى على رأيه، بينما خالفه الإمام أبو الحسن الأشعرى إذ أعلن أن الصفات الأخيرة حادثة.

هكذا يؤكد الإمام أبو حنيفة قدم الصفات سواء كانت ذاتية أوفعلية، وقد كفر القائلين بأنها مخلوقة أو محدثة أو وقف أو شك فيها.

من هنا نستطيع القول إن الإمام أبا حنيفة رغم كونه إمام مدرسة اهل الرأى، فقد التزم بمنهج النقل وقد تمسك بالنصوص ولم يؤول، وقد تابعه الإمام الماتريدى، عكس الأشاعرة الذين ثبتوا صفات الذات ونادوا بحدوث صفات الأفعال فكان موقفهم أقرب إلى العقل منه إلى النقل.

---

١. التفتازانى: شرح العقائد النسفية - الأستانه - ص٣٣.

٢. ابن تيمية: الأسماء والصفات - ص٢٥٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعقيب:

بعد أن عرضنا لمشكلة الذات والصفات من وجهة نظر مجموعة من الفرق ووجهة نظر الإمام أبى حنيفة نستطيع القول.

١- اتفقت وجهة نظر السلف والأشاعرة والماتريدية مع الإمام أبى حنيفة فى أنه ''سبحانه ليس كمثله شيء'' وأنه سبحانه وتعالى منزه عن المشابهة والمماثلة ''لا يشبه شيئاً من الأشياء من خلقه ولا يشبهه شئ من خلقه'' كذلك نفوا التشبيه والتجسيم وقدموا أدلة نقلية وأخرى عقلية على بطلان التشبيه والتجسيم فى حق الله تعالى، ويعتبر الإمام أبو حنيفة هو اول من أطلق على الله الشيئية، وهو يستند فى هذا إلى الآية: ''**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ**''[1] ويقصد الإمام أبو حنيفة بهذه الشيئية أنه موجود بذاته وصفاته إلا أنه ليس كالأشياء الموجودة ذاتاً وصفة فهو شئ لا تدركه الأفهام والعقول.

٢- لوحظ فى منهج الإمام أبى حنيفة الكلامى إنه متوقف غير مؤول فى صفات الله فالله صفات ولكنها بلا كيف كالوجه واليد والنفس وتابعه فيها الماتريدية والأشاعرة وكذلك حين ذكر الاستواء على العرش من غير كيف'' عند الأشاعرة والماتريدية اتفق منهجهم مع منهج الإمام أبى حنيفة، أما عن صفات الله بأنها ''ليست هو ولاغيره'' فإن الأشعرى قد وقع فى تناقض بشأن هذه العبارة، ففى محاولة إثبات أنه تعالى عالم بعلم يسلك طريقة قياس الغائب على الشاهد بما يمكن أن تدل عليه هذه الطريقة من معنى المماثلة بين العلمين الإلهى والإنسانى، صحيح أن الأشعرى بصدد إثبات "علم " لله قد أعوزه البرهان على إثبات ذلك العلم الغائب وصحيح أيضاً أن الأشعرى ذهب إلىأن علم الله لا يمكن أن يكون كعلم الإنسان، ولكن طريقة استدلاله ومحاولته الحثيثة فى مخالفته لموقف المعتزلة ورغبته فى إثبات أن لله علماً، كل ذلك أوقعه فى تناقض بتشبيه العلم الإلهى بالعلم الإنسانى وان لم يصرح بذلك.

٣-تابع الماتريدى آراء أستاذه الإمام أبى حنيفة فى قوله إن صفات الأفعال قديمة، فالماتريدية لا تميز بين صفات الذات وصفات الفعل، فكل الصفات عندها قديمة، أما صفات الفعل فهى عند الأشاعرة حادثة، ويرى الإمام الغزالى أن النزاع لفظى بينهما، كما حاولت الماتريدية والأشاعرة التوسط بين المشبهة والمجسمة وبين المعتزلة، لكن الأشاعرة مالوا إلى تأويل بعض الآيات رغم كون الأشعرى شافعى المذهب، عكس الماتريدى وهو حنفى المذهب وتابعاً لمدرسة الإمام أبى حنيفة وهى مدرسة أهل الرأى.

---

١. سورة الأنعام : آية ١٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلام الله

كلام الله فى الفكر الإسلامى:

الكلام يطلق على الملكة التى بها التمكن من ترتيب الكلمات[١] ، ويعرفه الجرجانى بأنه علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام والقيد الأخير لإخراج العلم الإلهى للفلاسفة، وفى إصطلاح النحويين هو المعنى المركب الذى فيه الإسناد التام وفى تعريف آخر هو علم باحث عن أمور يعلم منها المعاد وما يتعلق به من الجنة والنار والصراط والميزان والثواب والعقاب، وقيل الكلام هو العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة عن الأدلة.[٢]

هذا وقد خصص الدكتور أبو العلا عفيفى مبحثاً خاصا للكلمة أسماه ''نظريات الإسلاميين فى الكلمة'' عرض فيه لنظرية الكلمة فى الفكر الإنسانى، وذكر أن معنى الكلمة فيه الشئ الكثير من الغموض، ليس فى الفلسفة الإسلامية وحدها، بل فى الفلسفات الأخرى التى تقدمتها، وذلك لكثرة ما توارد عليها من المعانى المختلفة فى العصور الفلسفية المختلفة[٣]

وقد ذكر الكردستانى فى تقريب المرام أن الكلام هو العلم بالعقائد وهى الأحكام التى يتعلق الفرض بمجرد اعتقادها بالقلب وأما التى يتعلق الفرض بعملها وإن كان الاعتقاد بها أيضاً مقصوداً فالعلم بها على الفقه.[٤]

وقد بلغت أهمية موضوع الكلام الإلهى درجة أنه أصبح الموضوع الأول للعلم، ولكون صفة الكلام موضوعاً للعلم تجاوز عن موضوع العلم ذاته، فالكلام أحد موضوعات

١.محمد بخيت المطيعى: رسالتان فى فقه أبى حنيفة - مطبعة النيل بمصر - ١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م - ص٤.

٢.الجرجانى: أبو الحسن على بن محمد بن على - التعريفات - الدار التونسية للنشر - ١٩٧١م - ص٩٨.

٣.أبو العلا عفيفى: نظريات الإسلاميين فى الكلمة - الجزء الأول - المجلد الثانى - مجلة كلية الآداب - ١٩٣٤ - ص١٤.

٤.الكردستانى: عبدالقادر الغندجى، تقريب المرام فى شرح تهذيب الكلام - شرح فرج الله زكى الكردستانى - كتبخانه مجلس بلدى الإسكندرية - ص٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلم وليس موضوعه الأوحد، كما أن الكلام ذاته موضوع جزئى من موضوع أشمل وأعم وهو موضوع الصفات فهو الصفة السادسةمن صفات الذات السبع.(١)

ثم كانت المشكلة الكبرى وهى مشكلة "خلق القرآن" التى تبنى فيها المأمون ثم المعتصم آراء المعتزلة الذين حاولوا إجبار الناس على الإعتقاد أن القرآن مخلوق، وهم فى ذلك استخدموا الأفكار اليونانية فى تفسير علم اللاهوت الإسلامى.(٢)

هذا وقد ارتبطت هذه المشكلة بما يعرف فى التاريخ الإسلامى بمحنة الإمام ''أحمد بن حنبل''، وعن تسرب هذه المشكلة إلى الفكر الإسلامى يقول ابن نباتة: ''إن هذه المشكلة وجدت بذورها فى العهد الأموى، وأن الجعد بن درهم قد أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام، ثم نزل بالكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان.(٢)

وربما تأثر الخليفة المأمون بنزعته الفارسية التى ورثها عن أمه والبيئة التى ربى فيها، وقد أثار بمسألة خلق القرآن فتنة كبيرة جعلت المسلمين يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً، وقد أراد أن يحمل الناس على القول بذلك بحد السيف، فأجابه بعض العلماء تقية لا إيماناً بالرأى، فكان منهم يحى بن معين وغيره يقولون ''أجبنا خوفا من السيف'' أما الإمام أحمد بن حنبل فقد أبى عليه إيمانه أن يتبع التقية، فجهر بمخالفة هذا الرأى وقال: إن القرآن غير مخلوق بالحجج العقلية والسمعية، فحبسه المعتصم ويقال أنه مات فى الحبس. ومن خلال ذلك نستطيع القول أن مشكلة الكلام لها أهمية كبرى فى الفكر الإسلامى.

أ- اتهام الإمام أبى حنيفة بالقول بخلق القرآن:

اتهم الإمام أبو حنيفة بالقول بخلق القرآن، وهذا الاتهام هو افتراء على الإمام، فقد صرح الإمام أبو حنيفة فى كتابه الفقه الأكبر ''والقرآن كلام الله تعالى فى المصاحف مكتوب، وفى القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبى صلى الله عليه وسلم منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق، وكتابتنا له مخلوقة، وقراءتنا له مخلوقة، والقرآن غير مخلوق، وما ذكر الله

---

١. د.حسن حنفى: من العقيدة إلى الثورة – المجلد الأول – مكتب مدبولى ص٥٧.

2. Gohn B. taylor: Thinking about Islam – Lutterworth Educational guilford and London – 1979-P.39.

٣. د.عبدالحميد سند الجندى: ابن قتيبة – عدد'٢٢' من سلسلة أعلام العرب – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – ص٢٢٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعالى في القرآن حكاية عن موسى وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعن فرعون وإبليس فإن ذلك كله كلام الله تعالى إخباراً عنهم، وكلّم الله تعالى غير مخلوق وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله تعالى قديم لاكلامهم، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى، كما قال الله تعالى وكلّم الله موسى تكليماً، وقد كان الله تعالى متكلماً ولم يكن كلم موسى عليه السلام، وقد كان الله تعالى خالقاً في الأزل ولم يخلق الخلق.[١]

وقد ادعى خصوم أبي حنيفة أنه كان يقول بهذا الرأى وأنه استتيب من ذلك، فقد جاء في كتاب"تاريخ بغداد" أخبرنا أبو الميمون البجلي حدثنا أبو زرعة عبدالرحمن بن عمرو، أخبرني محمد بن الوليد قال: سمعت أبا مسهر يقول: قال سلمة بن عمرو القاضي على المنبر: لارحم الله أبا حنيفة، فإنه أول من زعم أن القرآن مخلوق. وذكر في هذا الموضوع أن يوسف بن عثمان أمير الكوفة استتاب أبا حنيفة.[٢]

ويروى عن سفيان بن وكيع[٣] قال بعث ابن أبي ليلى إلى أبي حنيفة فسأله عن القرآن فقال مخلوق، فقال تتوب وإلا أقدمت عليك؟ فتابعه فقال القرآن كلام الله، قال فدار به في الخلق يخبرهم أنه قد تاب من قوله القرآن مخلوق، فقال حماد بن أبي حنيفة فقلت لأبي كيف صرت إلى هذا وتابعته؟ قال يا بني خفت أن يقدم على فأعطيته التقية.[٤]

ثم نسبت رواية أخرى تدل على أن الإمام الأعظم كان يقول بخلق القرآن، وقد نسبت هذه الروايه إلى أبي يوسف إذ يقول: حدثنا ..... حدثنا: الأصمعي، حدثنا: سعيد بن سلم الباهلي قال: قانا لأبي يوسف لما لم تحدثنا عن أبي حنيفة؟ قال ما تصنعون به مات يوم مات يقول: القرآن مخلوق، وفي رواية أخرى أخبرنا العتيقي ..... حدثنا الحسن بن أبي مالك – وكان من خيار عباد الله – قال، قلت لأبي يوسف القاضي: ما كان أبو حنيفة يقول في القرآن؟ قال: كان يقول: القرآن مخلوق قال: قلت فأنت يا أبا يوسف؟ فقال :لا.

---

١. الإمام أبو حنيفة: الفقة الأكبر – ص١٥،١٦.

٢. الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد – مطبعة السعادة بمصر – ١٣٤٩هـ – ١٩٣١م – ج١٣/٣٧٨-٣٨٤.

٣. سفيان بن وكيع بن الجراح أبو محمد الرواس الكوفى – كان صدوقاً إلا أنه ابتلى بوادقة فأدخل عليه ما ليس من حديثه، فنصح فلم يقبل فسقط حديثة من العاشرة.(انظر تقريب التهذيب ج١ص٤٥٢)

٤. محمد زاهد الكوثرى: تأنيب الخطيب على ما ساقه فى ترجمة أبى حنيفة من الأكاذيب – مطبعة الأنوار – ، طبعة أولى – ١٣٦١هـ – ١٩٤٢م، ص٥٣،٥٤،٥٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويكفينا فى الرد على هذه الافتراءات ما ساقه فى هذا المجال الدارقطنى من أن الإمام أبا حنيفة كان من أجهر خلق الله بالحق، وأصرحهم فى الحق فلو كان من الذين يعطون التقية لما ضربه ابن هبيرة، ولا امتحنه والى الكوفة، ولا ضربه المنصور إلى أن يموت وهو محبوس فمن ابن أبى ليلى؟ حتى يعطيه أبو حنيفة التقية! وليس هذا إلا كذبا مكشوفاً.

وأما عن أبى يوسف فيروى لنا التاريخ أنه كان يعظم الإمام فى حياته وبعد مماته، وما ذكره ابن أبى العوام يجلى الموقف إذ يقول: حدثنى: محمد بن أحمد بن حماد حدثنى: محمد بن شجاع قال: سمعت الحسن بن أبى مالك يقول: سمعت أبا يوسف يقول: جاء رجل إلى مسجد الكوفة يوم الجمعه فدار على الخلق يسألهم عن القرآن، وأبو حنيفة غائب فى مكة فخاض الناس فى ذلك واختبطوا، والله ما أحسبه إلا شيطانا تصور فى صورة الإنس فانتهى إلى حلقتنا فسألنا.فنهى بعضنا بعضاً عن الجواب فى ذلك، وقلنا له شيخنا غائب ليس بحاضر ونكره أن نتقدمه بكلام حتى يكون هو المبتدئ به، فانصرف عنا. قال أبو يوسف: فلما قدم أبو حنيفة تلقيناه بالقادسية فسلمنا عليه، وسألنا عن الأهل والبلد فأخبرناه ثم قلنا له بعد أن تمكنا: يا أبا حنيفة وقعت مسألة.فما تقول فيها؟ فكأنه كان فى قلوبنا وأنكرنا وجهه! وظن أنها مسألة مفتنة، وإنا قد تكلمنا فيها بشئ فقال: ماهى؟ قلنا: كذا وكذا فأخبرناه بما سأل عنه الرجل فسكت ساعة ثم قال لنا: فما كان جوابكم فيها؟ قلنا: لم نتكلم فيها بشئ وخشينا أن نتكلم بشئ تنكره فسرى عنه، وأسفر وجهه، وقال جزاكم الله خيراً، احفظوا وصيتى لا تتكلموا فيها بكلمة واحدة أبداً ولا تسألوا عنها أحداً أبداً، انتهوا إلى أنه كلام الله عز وجل بلا زيادة حرف واحد ما أحسب هذه المسألة تنتهى حتى توقع أهل الإسلام فى أمر لا يقومون له ولا يقعدون، أعاذنا الله وإياكم من الشيطان الرجيم.[1]

وهذه الرواية تدل على توافق آراء الإمام أبى يوسف مع آراء استاذه أبى حنيفة وفيها بين أبو حنيفة اعتقاده فى هذه المشكلة.

ب- موقف أهل السنة من كلام الله:

تبنى أهل السنة رأى الإمام أحمد بن حنبل فى القول بقدم القرآن، فقد وضع أحمد بن حنبل عقيدته فى كلام الله وهى قوله ''نقول إن الله لم يزل متكلماً إذاً ولا نقول: إنه كان ولا

---

١. محمد زاهد الكوثرى: تأنيب الخطيب على ما ساقه فى ترجمة أبى حنيفة من الأكاذيب - ص٥٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتكلم حتى خلق كلاماً، ولا نقول إنه قد كان ولا يعلم حتى خلق علماً، ولا نقول إنه كـــان ولا قدرة، ولا نقول إنه كان ولا نورله حتى خلق لنفسه نوراً،ولا نقول إنه كان ولا عظمة له حتى خلق لنفسه عظمة''.(١)

ويوكد ابن تيميه على أن مذهب أهل السنة والجماعة قديم، وقد رفض ما ذهبت إليـــه الجهمية والمعتزله والنجارية من أن كلام الله محدث مخلوق ومنفصل عن الله، أو أن كـلام الله حادث بعد وجود المخلوقات، لكن مما يجب الإيمان به والتصديق أن الله يتكلـــم، وأن كلامـــه قديم وأنه لم يزل متكلماً في كل أوقاته بذلك موصوفاً، وكلامه قديم غيرمحدث كالعلم والقـدرة، كذلك فإن الله كان متكلماً بالقرآن قبل أن يخلق الخلق، وقبل كل الكائنات موجوداً، وأن الله فيما لم يزل متكلماً كيف شاء، وكما شاء، وإذا شاء أنزل كلامه، وإذا شاء لم ينزله.(٢)

وفى ''تبين كذب المفترى'' أخبرنا الشيخان الفقيه أبو عبد الله محمد بن الفضل وأبـو الحسين أحمد البيهقي أنه: لما كلم ''الشافعى'' ''حفص الفرد'' فقـــال ''حفـص'' القـرآن مخلوق، فقال: له ''الشافعى'' رحمه الله كفرت بالله العظيم، ثم قال''الشافعى'' لأن يلقـــى الله العبد بذنوب مثل جبال تهامة خير له من أن يلقاه باعتقاد حـــرف ممـــا عليـــه هـــذا الرجـــل وأصحابه، وكان يقول بخلق القرآن.(٣)

كذلك استنكر الإمام مالك الكلام فى مشكلة خلق القرآن، وقال ''القرآن كلام الله، ومـــن قال القرآن مخلوق يوجع ضرباً وحبس حتى يتوب''.(٤)

ج- موقف المعتزلة:

أما موقف المعتزلة من مشكلة كلام الله فهو مخالف لموقف الحنابلة، وقـد بلـغ هـذا الخلاف إلى حد إراقة الدماء فى زمن المأمون والمعتصم، وكانت المشكلة سبب محنة الإمـــام أحمد بن حنبل.

---

١. د.النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام - ج١/٢٥٦.

٢. ابن تيمية: الأسماء والصفات - ج١/٧٨،٧٩.

٣. ابن عساكر: تبيين كذب المفترى - ص٣٣٩-٣٤١.

٤. الإمام أبو زهرة: مالك - دار الفكر العربى - ص١٧١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والكلام لدى المعتزلة مخلوق، فالقرآن لديهم لو كان قديماً لشارك الله فى الألوهية، ذلك أن القدم صفة ذات للألوهية. فموقف المعتزلة من مشكلة ''كلام الله'' أو ''خلق القرآن'' فرع من تصورهم للتوحيد، ذلك أن إنكار الاعتقاد بخلق القرآن، يعنى إثبات قدمه، وكل ما هو قديم فهو إله، أما إصرار المعتزلة على فرض الاعتقاد بخلق القرآن على المسلمين هو خشيتهم أن يضاهى المسامون - حين يعتقدون بقدم كلام الله أو بالأحرى قدم القرآن - المسيحين إذ يعتقدون بقدم كلمة الله - اقنوم الابن - ومن ثم ألوهية المسيح لقد توهم المعتزلة أن القول بقدم القرآن إنما يترتب عليه أن يحل القرآن فى نفوس المسلمين مكانة المسيح من النصارى إذ كلاهما القرآن والمسيح كلمة الله.(١)

وقد عارض الحنابلة مذهب المعتزلة، وقالوا إن كلام الله غير مخلوق، فقد كان الحنابلة أقرب إلى العامة من المتكلمين بعامة، والمعتزلة بخاصة، فقد كانوا يدركون خطورة اعتناق العامة لعقيدة خلق القرآن، وكاد يلتبس عليهم لفظ الخلق بلفظ الإختلاق، لهذا فقد منع الخليل بن أحمد وصف كلام الله بالمخلوق لأن الكلام متى وصف بالخلق فالقصد به الكذب، كذلك كلفت العامه تنشد فى الأسواق فى زمن المتوكل:

لا والذى رفع السماء بلا عماد للنظر
ما قال قائل فى القرآن يخلقه إلا كفر
لكن كلام الله منزل من عند خلاق البشر

---

١. د. أحمد صبحى: فى علم الكلام - المعتزلة - طبعة رابعة - ج١/١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للحوادث، وذلك محال ويستحيل أن يكون في محل لأنه يوجب أن يكون المحل به موصوفاً، ويستحيل أن يحدثه لا في محل لأن ذلك غير معقول، فتعين أنه قديم به صفة له.[١]

الدليل الثاني:

قوله عزوجل: "**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**"[٢]، استدلوا بها على أن كلام الله صفة ذات غير مخلوق، وكلامه سبحانه وتعالى واحد هو أمر ونهي ووعد ووعيد، ثم استدلوا على قدم أمر الله قبل الخلق وبعده في قوله سبحانه: "**لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ**".[٣]

ويعترض الدكتور أبو العلا عفيفي على قول الأشاعرة من الأمر الوارد في هذه الآيات، كلام الله بمعنى الصفة الذاتيه غير المزايله لله، ويرى أنها نغمة جديدة لم نسمعها من قبل، وما كنا لنسمعها لو لم يتسرب إلى المسلمين أقوال المسيحين في قدم "الكلمة" غير المزايلة للذات الإلهية وإن كانت متميزة عنها.

وقالت الأشاعرة أيضاً كلمة التكوين "كن" الواردة في الآية "**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**"[٤] والآية "**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**"[٥]، من كلام الله القديم، وفسروا هاتين الآيتين تفسيراً يظهر فيه تجسيم الكلمة "كلمة التكوين"، إلى حد لا يمكن معه إنكار تأثرهم بتفسير فلاسفة اليهود.[٦]

كما قدم الأشعري بالإضافة إلى الأدلة النقلية أدلة عقلية، فقد دل العقل على كون البارئ حياً، والحي يصح منه أن يتكلم ويأمر وينهى، كما يصح منه أن يعلم ويقدر ويريد ويسمع ويبصر، فلو لم يتصف بضده وهو الخرس والعمى والحصر وهي نقائص ويتعالى

---

١. د.أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: دراسات في الفلسفة الإسلامية - طبعة اولى - مكتبة القاهرة الحديثة - ١٩٥٧ - ص٤٤.

٢. سورة الأعراف: آية رقم ٥٤.

٣. سورة الروم: آية رقم ٤.

٤. سورة يّس : آية رقم ٨٢.

٥. سورة النحل: آية رقم ٤٠.

٦. أبو العلا عفيفي: نظريات الإسلاميين في الكلمة - ص٣٩، ٤٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنها، كذلك كلام الله ليس شخصاً ولا نعتاً، لذا لم يجز عليه أن يكون مخلوقاً، ومن أثبت أن كلام الله شخصاً مخلوقاً لزمه أن يجوز الموت على كلام الله عزوجل وذلك مما لا يجوز.(١)

كما قدم الرازى وهو أشعرى أدلة عقلية على أن كلام الله تعالى أزلى غير مخلوق.

الدليل الأول:

هو أنه سبحانه وتعالى لو كان متكلماً بكلام محدث فذلك المحدث إما قائم بذاته أو قائم بغيره، والأول باطل لأنه يقتضى أن يكون ذاته تعالى محلاً للحوادث وهو محال، والثانى أيضاً باطل لأنه او جاز أن يتكلم بكلام غير قائم بذاته لجاز أن يكون جاهلاً بجهل قائم بغير ذاته وهو محال، فكون كلامه محدثاً: محال فثبت أن كلام الحق عزوجل ــ قديم أزلى.(٢)

أما الماتريدية فقد اتفقت مع الأشاعرة فى أن المراد من القرآن كلام الله إنما هو الصفة الأزلية القديمة التى ليست بصوت ولا نغمة، ويقول الماتريدى إن معنى أن الله تعالى متكلم أن له صفة الكلام وأنه موصوف بها فى الأزل، ومعنى أنه عالم أن له صفة العلم وأنه موصوف بها فى الأزل، وأنه لا علم لنا بهذه الصفة الأزلية إلا عن طريق الألفاظ والأصوات التى هى مظاهر خارجية حادثة، وعليه فالقرآن،الذى بين أيدينا ''أى الألفاظ الموجودة فى المصاحف المقروءة المسموعة، ليست سوى مظهر خارجى من مظاهر ذلك الحديث النفسى المعبر عنه بالصفة.(٣)

هـ – الكلام النفسى والكلام اللفظى.

ميز الإمام أبو حنيفة النعمان بين الكلام النفسى والكلام اللفظى،فالأول قديم والثانى حادث، وقول الإمام ولفظنا بالقرآن مخلوق وكتابتنا له مخلوقة وقراءتنا له مخلوقة يدل دلالة واضحه على أن دليل حدوث القرآن الملفوظ والمؤدى باللسان البشرى هذه الألفاظ مخلوقة، أما القرآن. بمعنى كلام الله القديم فهو قديم.

---

١. الشهرستانى: نهاية الأقدام فى علم الكلام ـ صححه الفردجيوم- ص٢٦٨.

٢. فخر الدين الرازى: المسائل الخمسون فى أصول الدين، تحقيق أحمد حجازى السقا- طبعة اولى- المكتب الثقافى للنشر والتوزيع – القاهرة – ١٩٨٩م – ص٥٣.

٣. د/أبو العلا عفيفى: نظريات الإسلاميين فى الكلمة – ص٤١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك الأشعرى فقد ميز بين الكلام النفسى والكلام اللفظى وإن لم يصرح بهذه التفرقة، فقال: إن الله تعالى متكلم فى الأزل وكلامه أمر ونهى وإخبار واستخبار، هذه الوجوه ترجع إلى اعتبارات فى كلامه لا إلى عدد فى نفس الكلام.(١)

والظاهر فيما يقرره الأشعرى أن كلام الله عنده يطلق بإطلاقين أحدهما يراد به صفة البارئ، وهذا الكلام الذى هو صفة للبارئ قديم، والثانى يراد به الألفاظ الدالة على هذا الكلام القديم، وهذا الكلام حادث مخلوق.(٢)

وقد خالف الأشعرى بهذا التدقيق جماعة من الحشوية إذ أنهم قضوا بكون الحروف والكلمات قديمة، والكلام عند الأشعرى معنى قائم بالنفس سوى العبارة، والعبارة دلالة عليه من الإنسان، فالمتكلم عنده من قام به الكلام، وعند المعتزلة من فعل الكلام غير أن العبارة تسمى كلاماً: إما بالمجاز، وإما بإشتراك اللفظ.(٣)

ويفرق الماتريدى بين أمرين فى كلام الله القديم القائم بذاته وهو المعنى النفسى الذى يعبر عنه بالألفاظ أو المعنى القائم بالنفس والذى يعبر عنه بالألفاظ والتراكيب هو قديم، وهذه التراكيب الدالة على المعنى القائم بالنفس معجزة لاشتمالها على النظم الغريب، أما الألفاظ والحروف والأصوات والتى يجعلها الله تعالى فى غيره كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبى صلى الله عليه وسلم نعترف بحدوثه وعدم قيامه بذاته.(٤)

تعقيب:

١-اتفقت كل من الماتريدية والأشاعرة مع رأى الإمام أبى حنيفة فى التوسط فى مشكلة ''كلام الله'' بين الحنابلة والمعتزلة فى أن كلام الله قديم عند ''أبى حنيفة والأشعرى

---

١. الشاشى: إسحق بن إبراهيم – أصول فى علم الأصول – ص٣٤.

٢. د.أبو الوفا التفتازانى: دراسات فى الفلسفة الإسلامية – ص٤٥.

٣. الشهرستانى: الملل والنحل ج١/٩٦.

٤. الماتريدى: رسالة فى الاعتقاد على مذهب أبى حنيفة مخطوط ورقة رقم ٣٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والماتريدى'' وكذلك أحمد بن حنبل، أما المعتزلة فكلام الله عندهم مخلوق، وقولهم هـذا وهو حدوث كلام الله مبالغة منهم فى التنزيه.

٢-اتفقت آراء الماتريدية والأشاعرة مع رأى أبى حنيفة فى قولهم أن القرآن المقروء والـذى يعبر عنه بالألفاظ والتراكيب مخلوق وحادث، وخالفهم ''الحنابلة'' بأن كلام الله ''قديم'' ولو كان مسموعاً أو مقروءاً.

٣-اتفق رأى الإمام مالك مع رأى الإمام أبى حنيفة فى عدم الخوض فى مشكلة خلق القـرآن، ''ما ذكر فى رواية أبى العوام عن أبى يوسف لما جاء رجل إلى مسـجد الكوفـه يـوم الجمعه ودار على الخلق يسألهم عن خلق القرآن'' لم يتكلم فيها أبو حنيفـة، لكـن لمـا اتسعت دائرة الجدل فى خلق القرآن بين قائل بحدوثه، وآخر قائل بقدمه كان لزاماً علـى الإمام أبى حنيفة عدم التوقف لأنه ليس هو الحل، ومن ثم فقد أدلى بدلوه فى هذه المشـكلة المهمة لأن السكوت فيها ضار بالعقيدة ومنهج أهل السنة.

٤-اتفقت الماتريدية والأشاعرة مع رأى أبى حنيفة فى التمييز بين نوعين من الكـلام الأول الكلام النفسى وهو قديم، والثانى الكلام اللفظى وهو الحروف والأصوات وهو حادث.

رؤية الله تعالى

الرؤية هى: المشاهدة بالبصر حيث كان أى فى الدنيا والآخرة[١]، والرؤيـة إدراك المرئـى وهى على عدة أنواع.

الأول : بالحاسة وما يجرى مجراها مثل قوله تعالى: **لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**''[٢]

الثانى : بالوهم والتخيل مثل أرى أن زيداً منطلق، ومثل قوله تعالى: ''**وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا**''[٣]

الثالث : بالتفكير مثل قوله تعالى: ''**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ**''[٤]

---

١. الجرجانى: التعريفات - ص٥٨.

٢. سورة التكاثر: آية٦،٧:

٣. سورة الأنفال: آية ٥٠.

٤. سورة الأنفال: آية ٤٨.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرابع : بالعقل مثل قوله تعالى: "فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ"[١] أى تقاربا وتقابلا حتى صار كل واحد منهما بحيث يتمكن من رؤية الآخر ويتمكن الآخر من رؤيته.[٢]

وفى مفتاح السعادة: الرؤيا هى فعل للنفس الناطقه و لو لم تكن لها حقيقه لم تكن لا يجاد هذه القوى فى الإنسان، والحكيم تعالى منزه عن الباطل..

يحكى أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى رأى كأنه ينبش قبر النبى صلى الله عليه وسلم ويجمع عظامه إلى صدره، فهالته الرؤيا فقال ابن سيرين هذه رؤيا أبى حنيفة، فقال أنا أبو حنيفة، فقال ابن سيرين اكشف عن ظهرك، فكشف فرأى خالاً بين كتفيه، فقال أنت النبى: قال عليه الصلاة والسلام يخرج فى أمتى رجل يقال له أبو حنيفة بين كتفيه خال يحيى الله تعالى دينى على يديه، قال ابن سيرين لا تخف إنه ''صلى الله عليه وسلم'' مدينة العلم وأنت تصلى إليها فكان كما قال.[٣]

وفى وصيته لأبى يوسف قال الإمام أبو حنيفة له: ''واذكر واستغفر الله لمن أخذت عنهم العلم وداوم على التلاوة، واقبل من العامه ما يعرضون عليك من رؤياهم فى النبى صلى الله عليه وسلم وفى رؤيا الصالحين.[٤]

أما عن رؤية الله تعالى فقد اتفق المسلمون على أنه سبحانه وتعالى لا يرى فى الدنيا، وقد تنازعوا فى رؤية رسولنا صلى الله عليه وسلم لربه ليله الإسراء والمعراج، وقد أنكرت عائشة رضى الله عنها أن يكون صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه، وحديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه – عند مسلم. قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، هل رأيت

---

١. سورة الشعراء: آية ٦١.

٢. د.عبدالقادر البحروى: رؤية الله تعالى والرد على المنكرين – طبعة اولى – مكتبة النور – الإحساء – ١٤٠٧هـ – ص١٠،١١.

٣. طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة -دائرة المعارف النظامية – حيدرآباد – الهند – ج١/٢٧٤،٢٧٥.

٤. الإمام أبو حنيفة: وصية الأمام الأعظم أبى حنيفة لأبى يوسف، مخطوط ورقة رقم ٩.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ربك؟ فقال: نورانى أراه، وفى رواية: رأيت نوراً '' صريح فى نفى الرؤية '' بل هو أبلـــغ من النفى الصريح لمجيئه على صورة الاستفهام الإنكارى. (١)

أما رؤية الله تعالى فى الآخرة فقد اختلف فيها بين نافٍ للرؤية ومثبت لها، فالإمام أبو حنيفة ومعه الماتريدية والأشاعرة أثبتوا الرؤية لكن بلا كيف، أما أهل السنة والجماعـــة فقـــد قالوا بجواز رؤية الله تبارك وتعالى فى الآخرة رؤية بصرية منزهاً عن صفـــات المحدثيـــن وخالفوا فى ذلك المعتزلة والجهمية.

أ- أدلة أبى حنيفة على رؤية الله تعالى:

قال أبو حنيفة فى الفقه الأكبر '' والله تعالى يرى فى الآخرة ويراه المؤمنون، وهم فى الجنة بأعين رؤوسهم بلا تشبيه، ولا كيفية، ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة''(٢)

فالله سبحانه وتعالى عند الإمام أبى حنيفة يرى ولكن بصيغة المجهول، أى ينظر إليـــه بعين البصر فى الآخرة لقوله تعالى **''وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ''**(٣)، أى وجـــوه حسنة منعمة بهية تراه عياناً بلا كيفية ولا جهه ولا ثبوت مسافة ومن يرى ربه لايلتفت إلـــى غيره، لقوله صلى الله عليه وسلم على مارواه مسلم ''إذا دخل أهل الجنـــة الجنـــة يقـــول الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجينا مـــن النار! قال: فيرفع الحجاب أى وجوه أهل الجنة فينظرون إلى وجه الله سبحانه فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم''. وهذه الرؤية مقرونة بتنزيه الله.

''وقال الإمام الأعظم فى كتابه ''الوصية'' ولقاء الله تعالى لأهل الجنة بلا كيـــف ولا تشبيه، ولا جهة''، وتكون رؤيته على وجه خارق للعادة من غير اعتبار المقابلة لهذه الحاســـة كما روى عنه صلى الله عليه وسلم: ''أتموا صفوفكم فإنى أراكم من وراء ظهرى'' على مـــا

---

١. د.عبدالقادر البحراوى: رؤية الله تعالى - ص٢٧.

٢. الإمام أبو حنيفة: الفقه الكبر - ص٢١،٢٢.

٣. سورة القيامة: آية رقم ٢٢،٢٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رواه الشيخان، وكما يرانا الله تعالى اتفاقاً فإن الرؤية نسبة خاصة بين طرفي الرائي والمرئي ومتعلقي رؤيتهما.(١)

ب-مذهب أهل السنة وأدلتهم:

قال أهل السنة والجماعة بجواز رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة، وقدموا أدلة نقلية من القرآن والسنة النبوية، وكذلك أدلة عقلية، وقد أستدلوا بنفس الآية أيضاً "**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**" إن تفسير النظر بالرؤية هو المنقول عن السلف الصالح، رضوان الله عليهم وهم أعلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ــ من غيرهم، فلقد قال إبن مردويه في تفسيره: حدثنا إبراهيم عن محمد حدثنا.....عن عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. في قوله "**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ**" قال: من البهاء والحسن، **إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**. قال تنظر إلى وجه ربها عز وجل، وقال عكرمة، وجوه يومئذ ناضرة قال: من النعيم إلى ربها ناظرة قال: تنظر إلى ربها نظراً، ثم حكى عن ابن عباس مثله، وهذا قول كل مفسر من أهل السنه والحديث.(٢)

ويحدثنا صاحب الظلال الشيخ سيد قطب فيقول: إن روح الإنسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس، تراها في الليله القمراء أو الفجر الوليد، أو الظل المديد فكيف؟ كيف بها وهي تنظر ــ لا إلى جمال صنع الله ــ ولكن إلى جمال ذات الله.(٣)

ونقل عن الإمام مالك بن أنس أنه عندما سئل عن معنى قوله تعالى "**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**" أتنتظر إلى الله عزوجل؟ قال نعم فقلت: إن قوماً يقولون تنتظر ما عنده، قال بل تنظر إليه نظراً.(٤)

وفي قوله تعالى "**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**"(٥)، أكد الإمام الطبري رأي أهل السلف في إمكان الرؤية، فقد ذكر الآراء المختلفه ثم علق على هذه الآراء

---

١. ملا علي القاري: شرح الفقه الأكبر - ص١١٩، ١٢١.

٢. ابن قيم الجوزية: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح - مطبعة دار الحديث - القاهرة - ص٢٦٨.

٣. سيد قطب: في ظلال القرآن - مجلد ٧٥ - مكتبة دار الشروق - القاهرة ص٣٧٧٠، ٣٧٧١.

٤. ابن الجوزية: حادي الأرواح ص٢٩٩.

٥. سورة الأنعام: آية ١٠٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بقوله: والصواب ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله أنه قال: سترون ربكم يوم القيامة، كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب، فالمؤمنون يرونه، والكافرون يومئذ عنه محجوبون، كما قال جل ثناؤه "كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ"(١)

وختم كلامه بقوله إن منكرى الرؤية لا يرجعون عن قولهم الا إلى ما لبس عليهم الشيطان، ويظهر أنه كان يتشدد فى نزوعه السلفى، حتى لقد ذكر تلاميذه أنه كفر المخالفين لآراء السلف.(٢)

كذلك قدم أهل السنة والسلف الصالح أدلةعقلية على جواز رؤية الله فى الآخرة وخالفهم فى غير ذلك غيرهم وتحقيقه أن الأبصار عبارة عن إدراك تام وانكشاف بليغ يحصل عقب فتح البصر، وهو فى الشاهد إنما يحصل بالمحاذاة والقرب وخروج الأشعة أو الانطباع، وفى حق الله تعالى فى الآخرة يحصل هذا الإدراك بدون تلك الشرائط شرطاً فى ادراكنا فى هذه كونها شرطاً فى النشأة والآخرة فى قدرة الله تعالى أن يخلق فى البصر قوة يتمكن بها من ادراك ذاته تعالى من دون تلك الشرائط كما قال (من غير موازاة ومقابلة وجهة) وعند الأشعرية واتباعه تلك الشرائط أسباب عاديه فيجوز الإبصار بدونها فى هذه النشاة، كذلك فإننا نرى الأعراض كالألوان والأضواء وغيرهما والجواهر كالطول والعرض فى الجسم، فلابد من علة مشتركة بينهما يكون هو المتعلق الأول للرؤيه وذلك الأمر أما الوجود أو الحدوث أو الإمكان والأخيران عدميان لا يصلحان لتعلق الرؤية بهما فلم يبق إلا الوجود وهو مشترك بين الواجب والممكن فيجوز رؤيته عقلاً.(٣)

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيميه على القول بثبوت الرؤية استناداً إلى آيات القرآن الكريم والسنة النبوية مع دلالة العقل عليها.(٤) وكذلك تلميذه ابن القيم قال: حدثنا الحسن بن

---

١. سورة المطففين: آية رقم ١٥:

٢. د.أحمد محمد الحوفى: الطبرى - عدد رقم ١٣ من سلسلة أعلام العرب - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - ص٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥.

٣. الجلال الدوانى: محمد بن أسعد الصديقى: شرح على العقائد العضدية، وبها حاشية عليه للعلامة المحقق عبدالحكيم السلكوتى ص٦٧، ٦٨

٤. ابن تيمية: منهاج السنة تحقيق محمد رشاد سالم - دار العروبة بالقاهرة - ج٢/٧٥، ٧٦.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عزمه.. .. حدثنا أبي مريم عن أنس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: "لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ"[١] قال: "للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله.[٢]

هكذا أجمع علماء السلف الأخيار وأعلام الأئمة من رؤية رب العالمين، واتفق الأنبياء والمرسلون والتابعون على ثبوتها في دار القرار من غير شك ولا إنكار.

نفاة الرؤية ورد الأشاعرة والماتريدية عليهم:

ذهبت المعتزلة إلى القول بنفي الرؤية، وقالوا كيف تعقل رؤية بلا مقابلة بغير جهة، وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤية، فهذه الشمس إذا حدق الرائي البصر في شعاعها أضعف عن رؤيتها، لا لامتناع المرئي، بل لعجز الرائي، وقد استندوا في ذلك لقوله تعالى "لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ".[٣]

وقد رد الأشعري على ذلك بأنه يحتمل أن يكون لا تدركه الأبصار في الدنيا، وتدركه في الآخرة، لأن رؤية الله تعالى أفضل اللذات وأفضل اللذات تكون في أفضل الدارين، ويحتمل أن يكون الله تعالى أراد بقوله "لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ" يعني لا تدركه أبصار المكذبين وذلك أن كتاب الله يصدق بعضه بعضاً.[٤]

أما أبو منصور الماتريدي، فقد استدل بهذه الآية على إثبات الرؤية، فقال في رؤية الرب عزوجل عندنا لازم وحق من غير إدراك ولا تفسير فأما الدليل على الرؤية فقوله تعالى "لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ" ولو كان لا يرى لم يكن لنفي الإدراك حكمه، إذ يدرك غيره بغير رؤية، فموضع نفي الإدراك وغيره من الخلق لا يدرك إلا بالرؤيه لا معنى له.[٥]

---

١. سورة يونس: آية ٢٦.

٢. ابن قيم الجوزية: حادي الأرواح ص٢٦٢.

٣. شرح العقيدة الطحاوية: حققها جماعة من العلماء، دار إحياء السنة بالإسكندرية - ص٢١١.

٤. الأشعري: الابانة تحقيق د/فوقيه حسين محمود، دار الأنصار - عابدين - ١٣٧١هـ - ١٩٧٧م - ج٢/٤٤.

٥. الماتريدي: التوحيد - ص٧٧.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الأدلة التى استند إليها المعتزلة فى نفى الرؤية هى قوله سبحانه وتعالى "**وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا**"[١]

وقد أكد السيد المرتضى وهو معتزلى على أن هذه الآية توجب صراحة نفى الرؤيه، لكن المرتضى وغيره من المعتزلة يرون أن موسى كان يعرف أن رؤية الله محال، ولكنه مع هذا سألها حين ألح عليه قومه بأن يجعلهم يرون الله ليعلموا أنه صادق فيما ادعى من أنه رسول لهم، وسؤال موسى كان بقصد أن يفحم هؤلاء السائلين حين يسمعون النص باستحالتها.[٢]

وقد خالف الأشعرى المعتزلة فى هذه الآية وقال إن هذه الآية تدل على جواز الرؤية، فلا يجوز أن يكون موسى صلوات الله وسلامه عليه وقد ألبسه الله جلباب النبين وعصمه بما عصم به المرسلين قد سأل ربه مايستحيل عليه، فإذا لم يجز ذلك على موسى صلى الله عليه وسلم، علمنا أنه لم يسأل ربه مستحيلاً، وأن الرؤية جائزة على ربنا تعالى، ولو كانت الرؤية مستحيلة كما زعمت المعتزلة ولم يعلم ذلك موسى صلى الله عليه وسلم وعلموه هم لكانوا على قولهم أعلم بالله من موسى وهذا مما لا يدعيه مسلم.[٣]

وقد أكد الرازى على صحة هذه الرؤية وتدل عليها وجوه هى:

١-*الوجه الأول:* هو أن موسى عليه السلام سأل الرؤية من الله تعالى ولو كانت الرؤية ممتنعة لما سألها.

٢-*الوجه الثانى:* هو أنه سبحانه وتعالى قال فى التنزيل: "**فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**" فعلق الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل ممكن، والمعلق على الممكن ممكن، فثبت بهذه الوجوه أنه سبحانه وتعالى مرئى.[٤]

ومن أدلة الأشعرى فى تأكيده للرؤية هى قوله تعالى "**إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**" إنها رائية ترى ربها عزوجل، ومما يبطل قول المعتزلة: إن الله عزوجل أراد بقوله إلى ربها ناظرة

---

١. سورة الأعراف: آية رقم ١٤٣:

٢. السيد المرتضى: الأمالى – طبعة أولى – مطبعة السعادة – ج٢/١٢٤.

٣. الأشعرى: الأبانة – ج٢/٤٣

٤. الرازى: المسائل الخمسون فى أصول الدين – ص٥٦،٥٧.